عصا الحكيم

في الدنيا .. والآخرة

عنوان الكتاب : عصا الحكيم في الدنيا .. والآخرة
المؤلف : توفيق الحكيم
تقديم : مالك صقور
اختيار : أ.د. حسين جمعة
سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم/89/ تشرين الأول
الناشر : اتحاد الكتاب العرب
الإخراج الفني : وفاء الساطي

الحقوق محفوظة

لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail: aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

توفيق الحكيم

عصا الحكيم

في الدنيا .. والآخرة

تقديم: مالك صقور

اختيار : أ.د. حسين جمعة

سلسلة الكتاب الشهري (كتاب الجيب) رقم (89)

توفيق الحكيم
1898 ـ 1987

مالك صقور

توفيق الحكيم ـ أديب من أبرز كتاب مصر والوطن العربي؛ فهو من الروّاد الأوائل الذين أسسّوا المسرح المصري ـ العربي، ولهذا يطلقون عليه (أبو المسرح العربي)؛ فأعماله الإبداعية التي تزيد عن المئة كتاب، في مختلف الأجناس الأدبية، أغنت الحركة المسرحية العربية، والمكتبة العربية.

***

ولد توفيق الحكيم عام 1898 ـ لأب مصري يعمل في سلك القضاء، وكانت أمه من أصول تركية، متعجرفة، متكبرة، ذات طبع جلف وصارم، سليطة اللسان، تفتخر بأصولها الأرستقراطية.

اعتقل توفيق الحكيم مع أعمامه في القاهرة، لمشاركتهم في ثورة 1919. وجاء أبوه وأطلق سراحهم بوساطة جاهه وماله. ولكي يبعده أبوه عن أجواء القاهرة أولاً، وعن اهتمامه الأدبي ــ المسرحي ثانياً، أرسله إلى فرنسا، لكن توفيق وجدها فرصة للإطلاع على الحركة الأدبية الفرنسية، وخاصة المسرح الفرنسي.

بعد عودته من فرنسا عام 1928، عمل توفيق الحكيم في سلك القضاء. وفي عام 1934، انتقل من سلك القضاء إلى وزارة المعارف ليعمل مديراً للتحقيقات. ومن ثم انتقل إلى مصلحة الإرشاد الاجتماعي في وزارة الشؤون الاجتماعية. ومن ثم انتقل إلى العمل في جريدة (أخبار اليوم).

***

اشتهر توفيق الحكيم بعد مسرحيته (الضيف الثقيل)، التي نشرها عام 1919، وقد درّست هذه المسرحية في المدارس لأهميتها. وموضوعها معروف جداً: (فثمة شخص يحلُّ ضيفاً على عائلة، وتنتهي أيام الضيافة، لكن هذا "الضيف" يبقى في البيت، ضد رغبة العائلة، ومن ثم يرفض

أن يغادر. ولهذا، فهو (الضيف الثقيل). قدّم توفيق الحكيم من خلال هذه المسرحية هجائية درامية حادة للاحتلال البريطاني، الذي كان يجثم على صدر الشعب المصري.

أما روايته (عودة الروح)، فهي من الروايات الهامة التي أصبحت ذائعة الصيت، وبوأته مكاناً مرموقاً في صفوف أدباء مصر والوطن العربي.

عكس توفيق الحكيم في روايته (عودة الروح) معاناة الشعب المصري، ومحنته، وقدرة صبره على الاحتلال البريطاني لمصر.

في طيات الرواية، يقول رأيه بالاحتلال، من خلال حوار بين عالم آثار فرنسي، وبين مفتش الري الإنكليزي.

"فبعد وليمة دسمة جمعت الاثنين الفرنسي والإنكليزي معاً، يسأل الفرنسيُ المستر الإنكليزي الذي أتخم من الطعام، وأخذ يتأهب للنوم:

إلى أين؟ ألا يؤّثر فيك هذا النسيم الرقيق يا مستر بلاك؟ فيلتفت الإنكليزي إلى النافذة، كأنه يبحث عن النسيم، ليراه بعينه، في حينها كان الفلاحون قد بدؤوا

ينهضون متوجهين إلى الحقول، وكل منهم يحمل فأساً، رفشاً، منجلاً، كي يتابعوا أعمالهم الزراعية.

فقال الإنكليزي: لا أرى إلا أسراباً من ذوي الجلابيب الزرقاء.

عندها قال الفرنسي، معجباً:

ـ ما أجمل ذوقهم، لون لباسهم كلون السماء.

مما أضحك الإنكليزي، فقال ضاحكاً ساخراً:

ـ أتحسب أنّ لهؤلاء الجهلة ذوقاً، فأجاب الفرنسي بثقة:

ـ جهلاء!!! إن هؤلاء (الجهلة) يا مستر بلاك، أعلم منا.... فيرّد الإنكليزي بتهكم:

ـ لأنهم ينامون مع البهائم في حجرة واحدة؟

فيجيبه الفرنسي:

ـ نعم. فعلاً، لأنهم ينامون مع البهائم في قاعة واحدة...

فيقول الإنكليزي ساخراً:

ـ إنها نكتة ظريفة، يا مسيو فوكيه.

فيغتاظ الفرنسي قائلاً:

ـ بل حقيقة تجهلها أوروبا يا للأسف.

نعم. هذا الشعب الذي تحسبه جاهلاً، إنه يعلم أشياء كثيرة، لكنه يعلمها بقلبه لا بعقله. إن الحكمة في دمه، ولا يعلم، إن القوة في دمه وقلبه وهو لا يعلم.

هذا شعب عريق.. هات فلاحاً، وافتح قلبه ستجد فيه ثمرات عشرة آلاف سنة، من تجارب ومعرفة، متراكمة، وهو لا يدري.

نحن الأوربيين، سرقنا من تلك الشعوب الرمز العظيم، دون الكنز الدفين.

لذا، افتح قلب الأوروبي، تجده خاوياً خالياً، لأنه يلقن في صغره، ولأن ليس له تراث، وليس له ماضٍ. احرمْ الأوروبي من المدرسة، يصبح أجهل من الجهل.

إن قوة أوروبا الوحيدة: هي العقل ـ تلك الآلة الصماء. أما قوة مصر فهي في القلب الذي لا قاع له.

نعم. يا مستر بلاك ـ هؤلاء الفلاحون، لهم ذوق، وذوق جميل، ولو سألتهم عن كلمة ذوق، ربما جهلوا معناها، أما نحن، فنعرف جيداً، معنى كلمة ذوق، ولكن ثق، أن فينا

عدداً كبيراً لا يمتلك الذوق. هذا هو الفرق بيننا وبينهم. إنهم لا يعلمون، ما عندهم من كنوز.

وأخيراً، يقول له:

ـ احترسوا من هذا الشعب، فهو يخفي قوة نفسية هائلة.

ـ إن الفاسد فيهم، والأخلاق الفاسدة ليست من مصر، بل أدخلتها إليهم أمم دخيلة كالأتراك.

رواية (عودة الروح)، من الأعمال المبكرة الهامة التي كتبها توفيق الحكيم في أعقاب ثورة 1919، عن نهوض البرجوازية القومية في مصر ضد الاحتلال البريطاني، وقد ربطه توفيق الحكيم بين زعيم الأمة والشعب، بمقولة (الكل في واحد).

لقد صرّح جمال عبد الناصر أكثر من مرة، أن هذه الرواية، كانت أحد أهم عناصر الإلهام له في شبابه. لذا، نجد توفيق الحكيم قد تبوأ مكانة مرموقة بعد ثورة تموز عام 1952، التي قادها جمال عبد الناصر.

لقد أحب توفيق الحكيم جمال عبد الناصر، وكان يدعوه بالزعيم، وبعد أن تعرض جمال عبد الناصر لمحاولة

اغتيال من قبل جماعة الأخوان المسلمين الشهيرة، في أثناء إلقائه خطاباً في الإسكندرية في المنشية في تشرين الأول عام 1954. كتب توفيق الحكيم "اسكتشاً" عن لحظة إطلاق النار على عبد الناصر، عنوانه (دمي من دمكم)، يؤكد فيه الوحدة المطلقة بين الشعب والزعيم.

ومما يذكر أيضاً، أنه بعد موت جمال عبد الناصر، حزن توفيق الحكيم حزناً عميقاً، وكتب مقالاً، يدعو فيه لإقامة تمثال للزعيم عبد الناصر، في (ميدان التحرير)، بوصفه زعيم الأمة، وقائد الثورة، ورئيس الجمهورية. ولكي يثير حماسة الناس، تبرّع من جيبه الخاص بمبلغ من المال، معلناً بداية الاكتتاب الشعبي من أجل إقامة تمثال لجمال عبد الناصر. لكن بعد فترة ليست طويلة، فتر الحماس لإقامة التمثال، الذي وجد مؤيدين، خاصة، أن التمثال سيقام بمبادرة من الشعب، ومن مال الشعب. وهكذا، لم يتم تشييد التمثال كما أراد توفيق الحكيم.

ولكن توفيق الحكيم الذي كتب فيما مضى (عودة الروح)، ومجّد جمال عبد الناصر، هو الذي كتب (عودة الوعي) التي كانت فاتحة الهجوم على جمال عبد الناصر

ومرحلته. في عهد حكم أنور السادات الخائن. كتابه (عودة الوعي) أثار ضجة كبرى، وراح أعداء عبد الناصر يكيلون الشتائم والتهم لجمال عبد الناصر، مبرزين سلبياته، طامسين إيجابياته. في الوقت نفسه، هاجم القوميون، والناصريون، وبعض الأدباء كتاب (عودة الوعي)، موضحين تناقض توفيق الحكيم.

***

في الذكرى الخامسة عشرة لرحيل توفيق الحكيم، كتبت د. نوال السعداوي مقالاً لإحياء ذكراه. مبرّرة لنفسها أنها تأخرت خمسة عشر عاماً بالكتابة عنه، وقد عرضت أسباباً عديدة، قائلة: "وهل يمكن أن نقضي على الحروب الاقتصادية واغتصاب الأرض أو الحقوق المادية للناس من أرض أو مياه أو إنتاج زراعي أو صناعي ونحن نعيش الحرب اليومية في حياتنا الفكرية والثقافية والأدبية؟

ربما لهذا السبب أكتب اليوم لأناقش فلسفة توفيق الحكيم في ذكراه الخامسة عشرة. لقد مرّت خمسة عشر عاماً على وفاته، ولم أفكر في مناقشة فلسفته إلا اليوم.

ربما كتبت مقالاً واحداً أو مقالين خلال حياته، ومثلهما عند وفاته، أو في الذكرى الأولى لوفاته، ثم توقفت عن الكتابة عنه، ربما شعرت كأنما أنفخ في قربة مثقوبة، كما يقولون، ولم أجد أحد متحمساً لأفكار توفيق الحكيم بعد موته. أو ربما قلة قليلة كانت متحمسة، ثم ضعف حماسها مع مرور السنين".

وتعد نوال السعداوي، أن انعدام الحماسة للكتابة عن كاتب بعد موته هي "عادة سيئة نتوارثها جيلاً بعد جيل، منذ عهود الفراعنة أو السلطة المطلقة في المجتمع الكبير والعائلة الصغيرة. إن (السلطة السياسية) هي التي تحدد لنا الأفكار والقيم والثقافة والأدب والفلسفة، ويطغى على الساحة الفكرية رجال ونساء السياسة، وليس رجال ونساء الفكر".

تروي نوال السعداوي، أنها كانت تعرف توفيق الحكيم عن قرب. فكانت هي معه في اجتماعات لجنة القصة بالمجلس الأعلى للفنون والآداب، لمدة أربعة أعوام من عام 1969 إلى عام 1972. إذ كان توفيق الحكيم يترأس اللجنة وهي عضو فيها، ومن هذه اللجنة كان كل من

يوسف إدريس، يوسف الشاروني، نجيب محفوظ، لطيفة الزيات ـ وثروت أباظة، وغيرهم، وتذكر نوال السعداوي، أن أغلب أعضاء اللجنة، كانوا من الشباب، تقول: "وأنا كنت شابة، أنظر إلى توفيق الحكيم باعتباره من الكهول، بشعره الأبيض، وشاربه الأبيض، وعصاه التي يتكئ بها حين يمشي، وصوته المبحوح، وأسنانه الصفراء من الدخان ربما، وخوفه من قيادة السيارات، وكانت قيادة سيارتي كفتاة شابة تجعلني أكثر استقلالاً من توفيق الحكيم"، ومن ثم تقول: "مع ذلك، كان توفيق الحكيم أقرب إليّ من الشباب أعضاء اللجنة، عيونهم كانت باهتة قليلاً إلى جانب عينيه المتقدتين بالبريق الأشبه بالطفولي، أقرأ في عينيه شقاوة الطفل الذي أصبح كهلاً، مع ذلك يحتفظ بطفولته وسذاجته ومكره، وكان توفيق الحكيم ماكراً مثل معظم الفنانين الحقيقيين، ذلك المكر النابع من دهاء الفن وذكاء الإبداع، وكان يحكي لنا الحكايات مثل شهرزاد، في ذكائها ومحاولتها ترويض السلطة المطلقة لشهريار.

كان يحكي لنا النكت السياسية التي تنقد السلطة المطلقة للحكم دون أن يتعرض لمضايقات رجال الأمن، وكان مثل الأطفال يضحك على النكتة قبل أن يحكيها لنا. بل كثيراً ما كانت سخريته تمتد من السلطة المطلقة فوق الأرض على السلطات المطلقة في السموات، وإلى الفراعنة الآلهة في مصر القديمة".

وتقول السعداوي: إنها كانت ترغب لو سمح الوقت لها، أن تكتب كتاباً كاملاً عن توفيق الحكيم كإنسان، وفنان، وصاحب فكر وفلسفة.

ومن ثم تناقش فكرة واحدة من أفكاره، وهي فكرته عن تحقيق السلام فوق الكرة الأرضية. هذه الفكرة التي شغلت المفكرين من النساء والرجال منذ نشوء العبودية وحتى اليوم.

تقول: "ونحن نعيش اليوم هذه المشكلة الكبيرة المتعلقة بمشروع السلام، أو عملية السلام الممطوطة بين دولة "إسرائيل"، والشعب الفلسطيني، وكيف يُذبح هذا الشعب أمام عيوننا كل يوم تحت اسم السلام، هذه الكلمة: "السلام" أصبحت مراوغة وثعبانية ومفزعة ومرعبة أكثر من

كلمة "الحرب"، بل قد تبدو كلمة "الحرب" أحياناً بريئة وإنسانية إلى جانب كلمة السلام".

أما عن فكرة تحقيق السلام، فماذا يقول توفيق الحكيم؟ تقول السعداوي: "كان توفيق الحكيم متحمساً شديد الحماس لفكرة تحقيق السلام في عالمنا البشري كله وليس فقط في عالمنا العربي، كان مثل "أرسطو" الذي انشغل طوال حياته بالفكرة ذاتها وكيف يتحقق السلام فوق الكرة الأرضية. إلا أن أرسطو عاش في العصر اليوناني العبودي (384- 322 ق. م)، وكان جزءاً من هذا العصر، وحين يكون الإنسان جزءاً من هذا العصر، وحين يكون الإنسان جزءاً من شيء فإنه لا يرى هذا الشيء أو لا يراه كله.

العين لا ترى نفسها". وتستطرد السعداوي في شرح هذه الفكرة، وتناقش فلسفة أرسطو، ومن ثم تعود إلى توفيق الحكيم، لتقول: "ربما كان توفيق الحكيم أكثر تحرراً وتقدماً في أفكاره من كثير من الرجال المعاصرين لنا اليوم، وكان يدرك القهر الاقتصادي الواقع على الفقراء في بلادنا وفي العالم كله، كان يدعو إلى إلغاء الفقر أو الجوع

كشرط أساسي لتحقيق السلام على الأرض. وهذه فكرة مهمة تربط بين السلام السياسي أو العسكري وبين العدل الاقتصادي".

ويمكن في إيجاز شديد تلخيص فكرة توفيق الحكيم ـ تقول السعداوي:

1ـ تحقيق السلام عن طريق القضاء على الجوع وإلغاء الحدود الدولية والخوف وعدم الثقة بين الدول.

2ـ فصل موضوع السلام عن السياسة والأخلاق والقيم والعواطف.

3ـ تحقيق السلام على أساس علمي بحت.

4ـ استخدام الخيال العلمي والفني لصياغة مشروع السلام.

ومن ثم تتابع د. نوال السعداوي، أطروحات توفيق الحكيم الطوباوية التي كان متحمساً لها جداً، فهو يحكي عن مشروعه هذا، في لجنة القصة بالزمالك، وفي مكتبه بجريدة الأهرام، وفي كل مكان، لكنها تقول: إنه مشروع خيالي غير قابل للتحقيق، وتنهي مقالتها بحوار

شيق معه، حول كل القضايا، قضية السلام، والمرأة، والجوع، والفقر، والثقافة(1).

***

في حرب تشرين التحريرية، عام 1973، جاء توفيق الحكيم إلى أقرب مخفر شرطة، وقال: "أنا توفيق الحكيم، عمري خمسة وسبعون عاماً. أريد أن أشارك في معركة الشرف. ضعوني في ورشة لتعئبة الذخيرة، أو الأدوية؛ كي أساهم في هذه الحرب المشرفة".

***

رحل توفيق الحكيم، بعد أن كتب أكثر من مئة كتاب، في مختلف المجالات، وأكثر كتاباته كانت بالمسرح. وهي من الجنس الذهني، إذ كتبها للقراءة، وليس للتمثيل على خشبة المسرح.

وبعد أن يئس من محاورة البشر، لجأ إلى الحوار مع حماره. لكن حماره هرب منه، فوجد أن العصا، هذه التي ترافقه في حله وترحاله، لم تخنه مرة واحدة، فكانت

"عصا الحكيم" هذه، وفي حواره مع العصا، يكون توفيق الحكيم، قد كبس الزر، في مطلع خمسينيات القرن الماضي، قبل أن يكون البشر قد سمعوا بجهاز سحري اسمه حاسوب.

***

"عصا الحكيم" كلمة من كلمات توفيق الحكيم، وفي حواره هذا بين الدنيا والآخرة، يقول ما يقول، ولا أريد أن أفسد متعة القارئ في عرض أفكار هذا الكتاب.

إحالة:

1ـ د. نوال السعداوي (أخبار الأدب) ـ العدد 474 ـ آب 2002 ـ ص32- 33.

تمهيد

ابنة من الخشب

تلك هي عصاي.. عرفتها أو قل حملتها منذ نحو ربع قرن... منذ أن كنت وكيلاً للنيابة في مدينة طنطا... منذ ذلك التاريخ وهي تلازمني كأنها جزء من ذراعي.. تتنقل معي وتسير.. من مصير إلى مصير.. لا تضجر مني ولا تزهد في صحبتي.. لو أنها كانت ابنة من لحم ودم، لقالت لي اليوم: دعني.. أنا لست من جيلك!.. والتفتت إلى زوجها وبيتها!.. ولكن عصاي لم تعصني بل تبعتني وأطاعتني وقاسمتني الأيام البيض والأيام السود.. إنها ليست مثل "حماري" الذي تركني وجرى إلى ميدان السياسة وانغمر فيها. فلم يعد في مقدوري العثور عليه أو تمييزه من بين السياسيين!. لا.. إن عصاي معي دائماً.. قانعة بحياتها الهادئة

المتواضعة بجواري.. تسمع كل ما يدور حولي.. وتهز رأسها في يدي عجباً أو سخراً أو صبراً.. وتكتم كثيراً.. وتهمس قليلاً.. ما من شك عندي في أنها تريد أحيانا أن تتكلم.. ولكنها تصمت أدباً.. لأني لم أدعها إلى الكلام.. لقد لحظها الكثيرون من قديم.. وأشار إليها أحياناً بعض الكاتبين والراسمين.. وحياها بعض الأصدقاء بقولهم لي: "أهي دائماً معك لا تفارقك؟!". نعم هي بعينها.. لا أبتغي بها بديلاً... ولو كان من الذهب الإبريز.. هذه العصا البسيطة من الخشب الأبيض الزهيد.. لقد هرمت واعتلت.. ونخر فيها الداء.. ولكني أتناولها بالعلاج.. والخوف على حياتها يخلع قلبي.. حتى كثرت في جسدها المسامير.. أنها يجب أن تعيش.. لأني لا أستطيع أن أتصور يدي بدون يدها.. تلك التي عاشت معي خير سنوات العمر.. !

أظن من حق هذه العصا ومن العرفان لها ببعض الجميل، وقد نزلت مني هذه المنزلة، وبلغت من الدهر هذه السن، أن أصمت أنا.. وأقدمها هي.. وأدعوها إلى الكلام هنا.. تقول لنا كل ما يجيش بصدرها، من شئون الناس والفكر والمجتمع...

الجزء الأول
في الدنيا

الخوف من الجوع

قالت العصا:

ـ يحدث أن ينطلق خيالي أحياناً متسائلاً: كيف يقضى الناس يومهم الأول في جنة الخلد؟.. أغلب ظني أن فقراء الدنيا سيرتمون على المائدة الشهية والفاكهة الجنية، يأكلون منها أكلاً يزعج الحراس من الملائكة، فيبادرون إليهم منبهين مذكرين: مهلاً.. مهلاً.. مخلدون فيها.. أنتم مخلدون !.. ولكن فقراء الدنيا لا يسمعون.. أو لا يريدون أن يصدقوا ما يقال.. فهم يملؤون البطون مما لذ و طاب، كأنما الموائد ستُرفَع عنهم بعد حين.. و الفاكهة ستزول بعد قليل.. مثلما كان يحدث لهم في دار الفناء فيما يسمى:

مطاعم الشعب !.. وكأني بحراس الجنة من الملائكة وقد أخذتهم الشفقة بهؤلاء الناس، أقبلوا عليهم يقصونهم بلطف عن الموائد، ناصحين:

- رفقاً ببطونكم.. إنكم واجدون ها هنا دائماً كل هذا الطعام !..

فترفع الأصوات:

ـ دائماً.. وإذا جعنا يوماً ؟؟..

ـ أنتم هنا لن تجوعوا أبداً.. أبداً..

ـ ومن يضمن لنا ذلك.. وكانوا كذلك يقولون لنا في الدنيا.. كان هنالك رجال يقولون لنا: "لن تجوعوا في ظل مبادئنا!".. فتبعناهم في شطر من الدنيا فوجدنا الدولة تجوع من أجل الفرد.. وتبعناهم في الشطر الآخر فوجدنا الفرد يجوع من أجل الدولة!..

ـ جنة الخلد هي المكان الذي لا يدخله الجوع..

ـ سنرى..

قالها القوم وكل منهم يلتهم تفاحته الرابعة.. وكأنه يسر لصاحبه: "تفاحة في اليد، ولا عشر في الغد!".

فهمس أحد الحراس من الملائكة لزميله:

- إن الخوف من الجوع لم يمت فيهم بعد، لعل الجوع هو أول ما يولد على الأرض وآخر ما يموت!..

الكرات الثلاث

قالت العصا:

ـ أتخيل القدر أحياناً في صورة رجل بارع، وقف في ميدان عام يحرك كفه في الهواء ويلعب بكرات ثلاث، كما يفعل الحواة... وقد اجتمع حوله الناس من مختلف الأعمار والأجناس.. كل قد اشرأب بعنقه.. يشاهد ـ فاغر الفاه ـ تلك الكرات تتراقص في يد الحاوي.. .

وقد كتب على الأولى: "المال".. وعلى الثانية: "الصحة".. وعلى الثالثة: "راحة البال"..

صاح القدر مزهواً في الناس:

ـ أما من واحد منكم أيها البشر يستطيع أن يفعل مثل ما أفعل؟..

فتقدم رجل ومد إليه يده قائلاً:

ـ أعطني الكرات وأنا أفعل مثلما تفعل.. .

فأعطاه القدر ما طلب.. فما كاد الرجل يلعب بها.. وتستقر في يده كرة "المال" وكرة "الصحة".. حتى تسقط من يده كرة "راحة البال".. .

فضحك القدر.. وضحك الحاضرون.. فتقدم آخر يتحدى.. فأعطاه القدر الكرات.. فلعب بها.. فإذا كرة "المال" تسقط من يده وتبقى معه كرة "الصحة" وكرة "راحة البال"..

فتقدم ثالث ورابع وخامس.. وهكذا دواليك..

ما من واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعاً في عين الوقت.. .

فصاح القدر في الناس:

ـ كفى.. كفى.. لا تحاولوا بعد الآن.. إنه ليخيل إليكم أن هذا في الإمكان.. ولكنه المستحيل.. إن طمعكم وغروركم يعميانكم عن الحقيقة: لا يمكن ليد إنسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه الكرات الثلاث!..

مخلوق محير

قالت لي العصا:

ـ لو سألت الفنان: لماذا ينتج؟.. لما أجاب بجواب واحد في كل الأحوال.. فهو في شبابه عندما تسيطر عليه الأحلام وتغذي وجوده الأوهام، ولا يعرف بعد من الحياة إلا جانبها البراق الخداع، ولا يحمل من تكليفها ما يبهظ أو يثقل، ولا يؤمن من حقائق الدنيا بغير الكلمات الكبيرة، ولا يرى من القيم غير المعاني العظيمة.. فإنه يقول:: أنتج من أجل المجد!

فإذا سألته في كهولته.. وقد تبددت الأحلام، وانقشعت الأوهام وظهر من الحياة وجهها الحقيقي فاتراً ساخراً، وأقبلت الدنيا تلقى على منكبيه الأثقال والتبعات، وخلعت الكلمات الكبيرة سحرها، وزال عن المعاني العظيمة

رنينها.. وخيل إليه أن جهده باطل.. وأن الناس من حوله يجدون وهو الهازل.. فإنه يقول: أنتج من أجل المال!

فإذا أعطيته المجد والمال.. ذلك المجد الذي لا مطمح بعده لطامح.. والمال الذي لا مطمع بعده لطامع..

وألقى نفسه مسموع الكلمة مرهوب الجانب، بإشارة من يده يستطيع أن يقيم الناس ويقعدهم، ويغير ما بهم ويصلحهم.. ووجد نفسه في قصور مرفوعة القباب..

عامرة بالجواري والجنات، تحت امرأته أكثر من يخت، يجوب به البحار والأنهار، وأكثر من هوية تشغله ولعبة تلهيه.. فإنك ترى منه بعد ذلك العجب الأكبر أنه ينتج أيضاً!..

فإذا سألته لماذا ولمن ينتج هذا الفن؟.. فإنه يقول: لابد من أن أخلق.. ولا تسألني لماذا ولا لمن؟..

لا توجد إذن غير حقيقة واحدة في كل ذلك: هي أن الفنان قد خلق ليخلق.. ومهما تكن الأسباب التي ينتحلها أو تنتحل له تبريراً لعمله.. فإن السبب الأكبر هو أن قبساً حل فيه من صفة الخالق الأعظم...

سر الإعجاز!

قلت للعصا:

ـ عندما زرت متحف اللوفر في الصيف، شاهدت فيه ما كنت أشاهد من ربع قرن: مصورين من مختلف الأسنان والأجناس، وقفوا بأدوات رسمهم وألوانهم يحاكون آثار الأعلام المعلقة على الجدران... وكان الكثير من الزوار يمرون بهؤلاء المقلدين، ويطيلون التأمل فيما يصنعون، ولا يستطيعون كتمان إعجابهم بدقة التقليد، وبراعة المحاكاة. فهذه لوحة "الجيو كندا" المشهورة لدافنشي، قد نقلها ناقل بابتسامتها الغامضة وألوانها القاتمة.. وتلك صورة "رافاييل" بريشته، وقد قلدها مقلد بكل ما فيها من حذق في الرسم ونضارة في اللون.. لقد كان الزوار المشاهدون

يـذهلون لتفـوق التقليـد علـى الأصـل في بعـض الأحيـان.. أو هكـذا خيـل إلـيهم، وكنـت أنـا مـن بـين أولئـك الـذين كـادوا يخـدعون بامتيـاز المحاكـاة.. ولكـني جعلـت همـي بعدئذ تقصي الأمر وتحري السر..

ما من شك في أن المهارة الفنية ليست وقفاً على العباقرة الغـابرين.. ومـا مـن شـك أيضـاً في أن مفـاتيح الصـناعة قـد اكتسبها الخلف بما انتفع من دروس السلف، وبما اختزن من تقدم العصور... فلا عجب في أن يطاول النقل الأصل في الصنعة الفنية... لكن هنالك شيئاً في الأثر الخالد لا يمكن أن يطاوله أو يبلغ إليه... هو الروح الداخلي.. هو ذلك المعنى الذي يشع من نظرات "الجيوكندا" وعيني"رافاييل".

نعم تلك كانت ملاحظتي الكبرى: ما من مقلد واحد استطاع أن ينقل نظرة العين على حقيقتها الأصلية.. .

ولقد قمت بنفسي بهذه التجربة مرات عديدة... كان إتقان المحاكاة معجزاً في كل شيء.. إلا في نظرات العيون... عندئذ أدركت أن سر الأثر الخالد ليس في الصنعة الفنية الخارجية.. ولكنه فيما استقر خلف ذلك من روح لا تنقل ولا تنال..

الهبوط إلى الشارع

قالت لي العصا:

ـ لست أدري هل تلاحظ هذه الظاهرة العجيبة في مصر اليوم؟

ـ أي ظاهرة؟..

ـ كل شخص في مصر يريد أن يهبط إلى الشارع.. ويتملق رجل الشارع.. الساسة والعلماء والقضاة والأدباء والفنانون والمفكرون.. ما من واحد من هؤلاء استطاع ـ إلا في النادر ـ أن يفكر بعقله لا يعقل الجماهير.. وأن في ذلك لخطراً كل الخطر على أمة لم يتم لها النضج والرقي.. لأن انقراض طائفة الخاصة التي تفكر بعقلها الممتاز وتقود

الشعب وتبصره وتنهضه وتهديه.. معناه زوال الرأس من جسم الأمة.. هل رأيت جسماً يسير بغير رأس؟!

فقلت لعصاي:

ـ أهذه الظاهرة خاصة بمصر وحدها؟ إنها ظاهرة عامة في كل بلاد العالم.. إنها سمة العصر الذي نعيش فيه.. إن رجل الشارع في كل أمة هو الذي يقرر اليوم مصيرها..

فقالت:

ـ ربما كان رجل الشارع في كل أمة متحضرة هو الذي يريد.. ولكنه ليس هو الذي يفكر، وإني أتحداك أن تدلني على أمة راقية ترك فيها العلماء والمفكرون والساسة، معاملهم وبحوثهم ومذكراتهم ودراساتهم، وشغلوا بالتوافه التي تشغل العامة، واهتموا بالحصول على رضى الناس الرخيص.. .

فقلت لها:

ـ حقاً.. ليس لدينا بعد هذا الطراز من العلماء والساسة والمفكرين الذين يعيشون حياتهم في معمل أو مبدأ أو فكرة.. ولكن رضى رجل الشارع هو دائماً المطلب الذي يسعى اليوم إليه قادة الأمم الكبرى.

فقالت العصا:

ـ فكر قليلاً تر أن رجل الشارع في الأمم الراقية هو الذي ارتفع، ولكن القادة في بلادنا هم الذين انخفضوا..

أعداؤنا الثلاثة

قالت العصا:

إن لمصر ثلاثة أعداء...

قلت:

أعرف... الجهل والفقر والمرض

قالت:

ـ لا.. بل الدجل والتهريج والنفاق... وإذا كانت مصر اليوم في هذا المستوى المنخفض من الحضارة.

ـ ويجب أن تعترف بهذه الحقيقة المرة مرغماً ـ فذلك لا يرجع فقط إلى فعل الجهل والمرض والفقر فيها..

وطالع التاريخ ينبئك بأن حضارات قد قامت وفى جوفها جهل وفقر ومرض.. وأن إمبراطوريات قد أنشئت وسواد أهلها يعانون من المرض والفقر والجهل.. ولكنها جميعاً أقيمت وأنشئت لأن أعمدتها ورؤساءها سلمت من جراثيم الأعداء الثلاثة الفتاكة: الدجل والنفاق والتهريج... ولكي أبرز لك خطر هذه العلل الثلاث أقول: يكفى أن يظهر رجل واحد خلا من هذه العلل حتى يحدث فيها حدثاً يغير مصيرها.. وإليك النبي العربي.. ظهر وحده في أمة بدائية، تسير في أمور دينها ودنياها على نهج معوج.. فلم يساير ولم ينافق.. بل نهض يرفع الصوت ويجاهر.. وبالحق الذي شعر به يبلغ وينادي... هو وحده أمام أمة راسخة في تقاليدها كالطود.. والناس من حوله يعجبون له، ولا يفهمون مراده، ويظنون به الظنون التي تساور كل مجتمع، فحسبوا دافعه حب المال والملك، فقالوا له: "إن كنت إنما جئت بهذا الحدث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا... ". ولكنه قال: {والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته..} .. بهذا برز من الصحراء دين حق ودولة كبرى وصلت المشرق بالمغرب!.

قلت للعصا :

ـ حقاً.. حقاً.. الدجل والنفاق والتهريج.. تلك هـي الأعـداء الثلاثـة الـتي يجـب أن نحاربهـا أولاً قبـل أن نـرى لمصـر مستقبلاً!..

لماذا فقدنا روح البناء؟

قالت العصا:

إني أتأمل الأهرام وما شيدته مصر الفرعونية، وأتأمل المساجد الأثرية وما شيدته مصر العربية... وأعجب لهذا البناء الذي يهزم الزمن.. وأريد أن أسألك: ترى ماذا يمكن أن نبقي للغد مما تشيده اليوم مصر الحديثة؟!

فقلت: لا شئ.. لأننا لا نبني شيئاً للبقاء.. لأن فكرة البقاء لا محل لها في نفوسنا.. والتفكير في الغد لا يحتل مكاناً من رؤوسنا... لأننا اليوم قوم نعيش لليوم والساعة، عيش الكسالى الخاملين.. أو المتواكلين والعابثين... ما من شئ ثابت في حياتنا.. كل بناء لنا يصنع واهياً... ليستهلك في

حينـه.. وكـل فكـرة مـتغيرة... وكـل رأي متقلـب.. وكـل برنامج منهار.. وكل تحمس لا يعيش غير نهار..

قالت العصا:

ومـا العلـة في ذلـك؟ وكيـف فقـدت مصـر الحديثـة روح الاستقرار؟.. أهو نظامها السياسي؟!

قلت:

ـ لا أظـن النظـام السياسـي وحـده هـو المسـؤول... إليـك انجلترا، تتوالى فيهـا الأحـزاب الحاكمـة في أوقـات متقاربـة.. وإليـك فرنسـا تـتغير فيهـا الـوزارات بسـرعة فائقـة.. ولكـن فكـرة البقاء.. فكـرة الغد، فكـرة الخلود.. كـل ذلـك بـاق راسخ في ضمير الشعب ... إذا قام هناك بنـاء عـام، فـإن العـين تلمح فيه من روعة الفن ومتانة الصناعة ما ينطبق بـأن البـاني إنما يبنى للدوام ... وإذا قام مبدأ عمل أصحابه على تحقيقه ودأبوا في ذلك حتى يصبح حقيقة نابضة، وإذا وضع برنـامج صـالح تعـاون الجميـع علـى تنفيـذه، فـلا تهـدم حكومـة مـا أقامتـه حكومـة.. ولا يحطـم فـرد مـا عملـه فـرد آخـر... إن الشعوب كالأشخاص.. في طور الطفولة تميل إلى التحطيم، وفى طور الرجولة تنصرف إلى الإنشاء...

قالت العصا:

ـ إن الطفولة تحتاج في تكوينها ونموها الى نموذج من الرجولة... ربما كانت علة مصر اليوم هي انعدام هذا النموذج!

جهاز السرعة

قالت العصا:

ـ العام يمضي وكأنه شهر أترى الشمس هي التي تسرع اليوم في مجراها.. أو أن الأرض هي التي تسرع في مجراها؟.. أو أن الأرض هي التي تسرع في مدارها؟..

قلت: ما أظن الشمس أو أظن الأرض هي التي تسرع ولكن الذى يسرع هو تفكيرنا ورغباتنا.. وأن الزمن يبطىء بنا ويسرع على قدر وسائلنا وغاياتنا.. بالأمس يوم كنا ننتقل من مدينة الى مدينة على ظهور الدواب، ونقطع المسافة القصيرة في الأيام والشهور، وننتظر الرسائل ترد بعد أسابيع من المكان القريب.. كان كل شئ كذلك يبطئ من حولنا مع بطء الزمن: التفكير والرغبة والغاية.. اليوم وقد نفخ

عفريت العالم في وسائلنا ، فجعلنا نقطع بالطائرات في ساعات ما كنا نقطع في أسابيع.. تحرك كل شيء تبعا لذلك. حتى غدت الأيام والأعوام وكأن لها أجنحة هي الأخرة تخطفها من الوجود.. وحتى غداً "الوقت" هو العدو الذى يطارده البشر لاهثين... وحتى غدت كلمة "السرعة" هي دستور اليوم وقانونه ودينه... دينه الذي له رسله وأنبياؤه من المخترعين الذين يعكفون على تجويد كل آلة وتحسين كل جهاز ليصلوا به إلى أقصى مدى من السرعة.. فما نكاد نطالع خبر ظهور طائرة صاروخية تقطع ألفي ميل في الساعة، حتى نطالع بعدئذ بقليل خبر طائرة أخرى أسرع من الأولى في التهام "الوقت".. هي السرعة في الوسيلة ولدت السرعة في الرغبة والسرعة في الوصول الى الغاية.. فما من واحد اليوم من سكان الأرض المتحضرين يستطيع أن يعيش بلا أحداث تمر به في كل يوم.. لابد من انقلابات في الفكر وفي المجتمع وفي الاقتصاد وفي الحكم. أن الجهاز العصبي للإنسان الحديث قد أصبح هو الآخر مثل الجهاز الكهربائي للطائرة الحديثة.. مكيفاً للسرعة لا للبطء. وما من شيء يثقل عليه ويخنقه ويشله مثل الهدوء والوتيرة

الواحـدة.. فهـو يشـتري الحركـة الدائمـة ولـو بـالحروب والدماء.. لـذلك سـوف تقـوم الحـروب في أوقـات متقاربـة... لـن يكـون سـلام مـا دام جهـاز السـرعة قـد ركـب في روح الإنسان!..

الشباب والحياة

قلت العصا:

ـ ما أعجب الشباب!.. كلما تذكرت أيام التحاقنا بمدرسة الحقوق ضحكت!.. كانت مدرسة الحقوق في ذلك الوقت تابعة لوزارة "الحقانية".. وكان يقال لنا إنه بالتحاقنا بها قد أصبح لنا الحق رسمياً في لقب "أفندي"! ... ولكن مطامعنا لم تكن لتقف عند هذا الحد.. كان كل واحد منا يعتقد أنه قد أصبح في البلد شخصية مهمة.. وما كان أحدنا يقبل وهو في السنة الأولى، منصباً يوم تخرجه أقل من منصب الوزير.. فلما انتقلنا إلى السنة الثانية قلنا: لا بأس بمنصب النائب العام... وعندما صرنا في السنة الثالثة قلنا: نقبل منصب المستشار... وفي السنة الرابعة تواضعنا وقلنا: إذا

عرض علينا منصب القاضي رضينا! فما اجتزنا الامتحان الأخير وحصلنا على ليسانس الحقوق، وخرجنا الى الحياة. حفيت أقدامنا سعياً وراء وظيفة معاون نيابة تحت التمرين!..

قالت العصا:

ماذا تسمى هذا؟.. أهو الغرور أم الجهل بالحياة؟..

قلت:

ـ ما الغرور إلا وجه من وجوه الجهل... وما أرى الحياة قاسية مفظعة في قسوتها إلا على الشباب.. لا لشئ إلا لأنه يجهلها.. وهو في جهله لها يثق بها.. ويعتقد أنه يعرفها وأنها في متناول يده..

قالت العصا:

ـ حقاً.. قلما تجد شاباً لا يردد في كل مناسبة كلمة "الحياة"!..

قلت:

ـ ان الإنسان لا يكثر من الكلام دائماً إلا عما ليس في يديه ويتوق إلى الوصول إليه.. ولكن المشكلة هي: كيف نحذر الشباب من مفاجآت الحياة؟..

قالت العصا:

ـ المشكلة الحقيقة هي: أنه ما من شاب يعتقد أو يعترف أنه يجهل الحياة.. الحل الوحيد هو أن يكبروا ليعرفوا.

الاختراعات تخلق الضرورات

قالت العصا:

ـ ما الذي جرى اليوم في الدنيا؟.. هل أصاب الأرض جدب فلم تنبت زرعاً.؟ وهل انتشر فيها طاعون فلم يبق ضرعاً؟.. في كل مكان من أنحاء العالم صراخ من ارتفاع تكاليف العيش.. والعالم هو العالم، والأرض هي الأرض، والزرع هو الزرع، والضرع هو الضرع.. ولم يزد تعداد سكان الأرض كثيراً.. وما زاد غير العلم الذي تقدم وتفوق.. هذا العلم الذي يأتي كل يوم باختراع.. أما استطاع أن يزيد في إنتاج الزرع والضرع بما يخفض من تكاليف المعيشة؟ على العكس أن تقدم العلم قد صاحبه ارتفاع في تكاليف الحياة..

قلت:

ـ هـذا صـحيح.. لأن مطالـب الحيـاة لم تعـد مجـرد زرع وضـرع.. إن العلـم قـد غـير وجـه الحيـاة العصـرية.. وخلـق ضرورات جديدة... ولم يعد المجتمع الحديث بالبساطة التي كان عليها فيما مضى..، إن العامل الصغير في مجتمع اليوم لا يكفيه مجرد الطعام واللباس والسكن ليعيش... إنه يرى من ضرورات حياته أن يدخن وأن يذهب إلى السينما وأن يشتري الصحف وأن يكون في بيته جهاز راديو.. هذا في مصر اليوم.. أما في أوربا وأمريكا فإن هذا العامل له ضرورات معيشة أكثر من ذلك.. وكلما ارتقى العلم كثرت الضرورات، وكلما كثرت الضرورات كثرت التكاليف وبهظت الأثمان وطالب العمال بزيادة الأجور ووقفت الحكومة في ذلك موقف المنزعج الحائر.. لأنها بزيادة الأجور تساعد على ارتفاع الأسعار، وبارتفاع الأسعار تعود المطالبة بزيادة الأجور.. وهلم جرا..

قالت العصا: إنها إذن مشكلة تتفاقم ولا حل لها.. لأن تقدم العلم في إطراد.. وسوف يكون ارتفاع مستوى المعيشة في إطراد أيضاً.

قلت:

ـ حقاً.. ما من حل إلا أن يوجد العلم اختراعاً مهمته إصلاح ما يفسده العلم!..

هل تقبل أن تولد؟

قالت العصا:

ـ لعلك اطلعت على نبذة غريبة نشرت أخيراً في إحدى الصحف.. مضمونها أن كاتباً في إنجلترا ألقى على جمهوره هذا السؤال: "هل تقبل أن تولد لو عرفت مصيرك مقدماً؟.. ". والعجيب هو أن هذا الجمهور قد أجابت غالبيته بكلمة "نعم".. .

قلت:

ـ وما وجه العجب في هذه الإجابة؟. إن هذا هو الرد الطبيعي:

ـ أطبيعي أن يرى إنسان مصيره المظلم.. ويوقن أن حياته ستكون سلسلة من المحن والآلام والمصائب والنكبات ويعرف أن وجوده على هذه الأرض سيكون حبيس البؤس والذل والمرض والشقاء، وأنه لن ينفع بحياته نفسه ولا غيره، وأن وجوده سيكون كارثة على نفسه وعلى الآخرين... ثم يقبل بعد كل ذلك أن يولد.. ليواجه مثل هذا المصير، ويحقق مثل هذه اللعنة؟!..

قلت:

ـ نعم يقبل أن يولد.. على الرغم من كل ذلك.. كما ظهر من نتيجة ذلك الاستفتاء... وهذا يدل على أن العبرة بالحياة ليست غايتها ولا مصيرها.. بل هي الحياة ذاتها.. هي الخروج من العدم على أي وجه من الوجوه.. إن الشيخ الهرم يقعده المرض والصمم، وتنقطع الصلة بينه وبين من حوله، ويصبح كتلة من لحم على عظم تتنفس. فيرضى ويبقى متشبثاً بهذا الخيط الواهي من خيوط الوجود.. إنه لا ينفع ولا ينتفع بالدنيا.. ولكن حسبه أنه كائن حي... وهذا عنده ليس بالشيء القليل..

قالت العصا:

ـ أذكر أنك قلتها يوماً في كتاب "أهل الكهف":

"إن أية حياة منحة، وأثمن منحة تعطي مخلوقاً هي الحياة".

الفن واسع والعقول ضيقة

قالت العصا:

ـ ما هي مهمة الفنان؟.. أهي أن ينقل الناس إلى دنياه.. أم هي أن يصور دنيا الناس للناس؟..

قلت:

ـ دعينا الآن من مهمة الفنان.. ولننظر في أمزجة الناس.. فإن فيها العجب.. كانت فرقة الشيخ سلامة حجازي تجوب الحضر والريف بروايات "هملت" و"روميو وجولييت" و"تليماك" فتلقى النجاح الساحق.. فذهب يوماً إلى الريف برواية عصرية تمثل "العمدة" و"شيخ الخفراء" و"المأذون".. فلم تلق هذه الرواية نجاحاً عند أهل الريف.. فقد سمعوا لغتهم

ورأوا صورهم على المسرح وخرجوا يقولون ساخطين: "أهذه فرجة؟! هذا شيء نسمعه هنا ونراه في كل يوم!.. ".

قالت العصا:

ـ ولكن هذه الرواية الريفية قد تلقى النجاح الباهر في العواصم عند المتحضرين..

قلت:

ـ لاشك في ذلك... لأن من أهل المدن من يجب أن يرى صورة أهل الريف.. كما أن العكس صحيح.. وهنالك من الناس من يفضل أن يرى صورته في المرآة.. ومنهم من يؤثر مشاهدة الصور الغريبة عليه.. .

قالت العصا:

ـ إن المشكلة إذن هي في اختلاف أمزجة الناس!.

قلت:

ـ إنها ليست مشكلة.. بل هي شيء طبيعي.. والخطأ الحقيقي هو مطالبة الفنان بمراعاة مزاج واحد من بين هذه الأمزجة... في حين أن الفن يجب أن يتسع نطاقه ليشمل كل هذه النزعات في الإنسان... فلابد أن يكون هناك الفنان الذي يصور دنيا الناس للناس ليروا أنفسهم في عمله فيزدادوا

معرفة بحقيقتهم... كما أنه لابد أن يكون هناك الفنان الذي ينقل الناس إلى دنيا أخرى من صنع خياله.. ليضيفوا إلى حياتهم المألوفة حياة جديدة.. يثرون بضمها ذهنياً ونفسياً..

قالت العصا:

ـ نعم.. إن الفن واسع ولكن عقول الناس هي الضيقة!..

أجيال الغد

قالت العصا:

ـ ألا تلاحظ أن الأجيال الجديدة أصبحت أقل احتمالاً للمشقة... وأضعف صبراً على المجهود؟.. كل ما من شأنه أن يتعب.. وكل ما يحتاج إلى كد.. وكل ما يتطلب الغوص أو الأناة أو الجهد، هو في نظر هذه الأجيال شيء شاذ.. يجب أن يزول؟..

قلت:

ـ هذا هو الواقع اليوم.. والعلة في ذلك ظاهرة.. وهي أن هذه الأجيال شبت في عصر مصاب بحمى السرعة.. ممعن في اختراع آلات التبسيط..

متسابق في استحداث أدوات التيسير... عصر أراد أن يجعل الآلة تتحمل عن الإنسان كل جهد.. فهو في مقعد يستطيع أن يطير في ساعات إلى أنحاء الدنيا.. وفي مقعد في السينما يستطيع أن يعلم أشياء كثيرة في عشرات من الدقائق.. وفي مقعد يستطيع بالتليفون أن يقضي حاجات في بلاده وخارج بلاده كان لابد لقضائها من مشقة الأسفار.. وفي مقعد يستطيع أن يطالع في مجلة أو صحيفة خلال ساعة واحدة من الأخبار والمعلومات والثقافات والمسليات ما يصرفه عن إنفاق الساعات الطوال في الكتب والمطولات.. ثم هو في مقعد يستطيع أن يسمع ويشاهد في التليفزيون طرفاً من ثمرات العلوم والآداب والفنون في زمن قليل وجهد يسير.. وهكذا تتعقب الآلة الإنسان الحديث فتمنعه من بذل أي مجهود.. حتى الحساب.. قيل إن آلة جبارة اخترعت ولها عقل عجيب يستطيع أن يقوم عن الإنسان بحل أصعب العمليات الحسابية.. فلا عجب إذن أن نرى الأجيال الناشئة في مثل هذا العصر قد فقدت القدرة على الصبر الطويل والجهد العنيف وكرهت كل ما يجهد الذهن، وأحبت كل ما يخطف البصر!..

قالت العصا: الويل لإنسان الغد إذن!.. أنه سيصبح شيئاً تافهاً.. ما قيمة الإنسان في الغد إذن!.. إنه سيصبح شيئاً تافهاً.. ما قيمة الإنسان وقد جردته الآلة من مقوماته، وجعلت منه كائناً رخواً... هي التي تفكر له وتبصر له وتسمع له وتقرأ له وتحسب له؟.. قل إذن: إن ا لآلة ستصبح لها خصائص الإنسان وأن الإنسان.. ستصبح له روح الآلة!..

بعث الحضارة

قالت العصا:

ـ يبدو أن الحضارة القائمة مقبلة على زوال.. فإن صنع القنبلة الأيدروجينية سيؤدي حتماً إلى استعمالها.. كما استعملت من قبل القنبلة الذرية.. فنحن اليوم في عالم سياسته كالأطفال.. ما إن تقع في أيديهم علبة كبريت... حتى يسارعوا إلى إشعال ما فيها ليتقاذفوا به.. فإذا تمت الكارثة وقذفت أمريكا على روسيا القنابل الأيدروجينية، وقذفت روسيا على أوربا وأمريكا هذه القنابل الهائلة، فمعنى ذلك تحطيم مراكز الحضارة الغربية.. فلو فرضنا أن مصر سلمت من شر هذا الصراع المبيد، وخرجت من هذا الفناء الذي ابتلع أوربا وأمريكا بدون أن تصاب بسوء.. فهل

تـرى أن في اسـتطاعتها أن تبعـث هـذه الحضـارة مـن جديـد بوسائلها الحاضرة؟

قلت:

ـ مـن المؤكـد أن وسـائل مصـر الحاضـرة قاصـرة جـداً، ولا تكفـي لبعـث حضـارة علميـة ضـخمة... فـنحن نتصـور أنفسـنا قـد تقـدمنا كـثيراً لأن في أيـدينا آلات ومعامـل ومصـانع... ولكننـا ننسـى أن هـذه الآلات والمعامـل والمصـانع تأتينا "جاهزة" من الغرب.. فلو تصورنا أن الغرب قد أبادته الحرب.. وأن علينا نحن أن نصنع في بلادنا الميكروسكوب والتلسكوب وآلة الطباعة وآلة النسيج وآلة توليد الكهرباء.. الخ.. وأن نـتقن صـنع العدسـة والـدينامو... وأن نبحـث ونكتشف ونخلق.. دون أن ننتظر من الخارج عوناً.. وأن نقيم بأيدينا وعقولنا الأدوات التي تمكننا من الكشف والخلق والإنتاج.. في مثل هذه الحالة يبدو السؤال عسير الجواب.. ولو قلنا إننا نستطيع مع ذلك بعث هذه الحضارة العلمية، لبقي سؤال آخر هو: في كم من الأعوام نستطيع ذلك؟.. أكبر الظن عندئذ أننا نحتاج إلى ما لا يقل، في تقديري، عن مائتين من الأعوام.

قالت العصا:

ـ ولكن هذه الحضارة التي ستنتج في مصر بعد كل هذه الأعوام قد لا تكون هي بالذات الحضارة المندثرة!

قلت:

ـ أرجو ذلك.. بل أتمناه من صميم قلبي.. إني أتمنى لمصر حضارة روحية تقوم إلى جانب الحضارة العلمية.. أنها فعلت ذلك تكون، بكل بساطة، قد بعثت في هذا العالم مرة أخرى، في ثوب جديد، حضارتها الأولى ومجدها القديم.

"اللّه" تعويذة الأمريكان

قالت العصا:

ـ عرفت رأيك فيما لو أبادت الحرب العالمية الثالثة العالم المتحضر ووقع على مصر عبء بعث الحضارة العلمية من جديد... لكن ما رأيك فيما لو أبادت القنبلة الأيدروجينية أمريكا وأوربا وبقيت روسيا وحدها هي المسيطرة على العالم... أو عكس ذلك.. أي لو أن روسيا وأوروبا هما اللتان أبيدتا وبقيت أمريكا وحدها هي المهيمنة على الدنيا ؟!

قلت:

ـ أرى في كلتا الحالين كارثة على الحضارة الإنسانية.. بالمعنى الذي أفهمه من هذه الحضارة.. ويفهمه كثيرون من

أن حضارة الإنسان يجب أن تقوم على قدمين ودعامتين: الفكر والإيمان.. أي العقل والقلب.. أي الدنيا والدين.. أي مد نشاط الإنسان واهتمامه إلى ما هو أدنى وإلى ما هو أعلى.. أي الحياة في عالمين.. عالم المادة وعالم الروح.. أي فهم وظيفة الإنسان على حقيقتها المثالية: وهي أن الإنسان هو المخلوق الوحيد بين جميع الكائنات الذي نيط به ربط الأرض بالسماء.. .

قالت العصا:

ـ وهل تعتقد أن أمريكا وروسيا تسيران بالحضارة في طريق آخر غير هذا الطريق؟..

قلت:

ـ يبدو ذلك.. أن كثيرين من مفكري أوربا قد استولى عليهم الخوف من الآن.. وإن إنجلترا التي قبلت مشروع مارشال لأنها في حاجة إليه، لترفض بأي ثمن أن "تتأمرك".. ويقول مفكروها إنّ النزعة الأمريكية ليست خيراً من النزعة الماركسية.. ويقول الفيلسوف الإنجليزي برتراند رسل: "إن الله عند الأمريكيين لم يعد في الوقت الحاضر أكثر من (تعويذة) يتيمنون بها للنجاح في الحياة أو لكسب الحروب!".

قالت العصا:

ـ هنا حقاً الكارثة.. ما من شخص يستطيع أن يجحد الله في صدره دون أن يجحد الإنسان فيه!..

الرجل الثالث

قالت العصا:

ـ لو تأملت حقيقة الدنيا التي نعيش فيها الآن، لوجدت أن المسيطر عليها رجلان: رجل السياسة ورجل العلم.. أي رجل تحركه الغريزة الأولى.. ورجل يحركه العقل الآلي... وقد استطاعت هذه الغريزة أن تركب هذا العقل، وتجمح به في سباق مروع مدمر نحو تحطيم الإنسانية... كل ذلك يحدث تحت أنظار رجل ثالث... رجل يحركه القلب..

قلت:

ـ تقصدين الأديب.. رجل القلم.. حقاً تلك هي المشكلة التي تحيرني الآن.. أني لأسائل نفسي كل يوم.. كلما حملت البرقيات أخبار الاستعداد الرهيب للحرب الثالثة وأسلحتها

المهلكة.. ما موقف رجل القلم في العالم اليوم؟.. أهو راض عما يرى؟..

لا.. بكل تأكيد.. ما من أديب واحد يقبل من أعماق قلبه أن تساق البشرية إلى ذلك الهلاك المنتظر... مهما يكن الثمن.. لأن شطراً كبيراً من الحضارة الحقة التي استقرت في النفوس المثقفة من صنع أدبه وقلبه وروحه.

قالت العصا:

ـ إذا كان هو لا يرضى، فلماذا هو يسكت؟

قلت:

ـ أتراه العجز؟!. أترى صرير القلم قد أصبح اليوم من الأصوات الهزيلة التي يضيع أثرها بين انفجار المفرقعات؟ أم أن القلب قد مات.. أو جبن أمام انتصار العقل الآلي؟!. ذلك القلب الذي كان قديماً تنفجر منه المشاعر والمثل التي قلبت التاريخ ورفعت قيمة الإنسان؟ أو أنه تواطأ طامعاً أو مخدوعاً؟

مهما يكن م أمر فإن رجل القلم والقلب مسؤول أمام المحنة الحاضرة... وإذا وقعت الكارثة فمعناها أنه لم يعد له وجود.. .

صناعة الآراء

قالت العصا:

ـ ما هي رسالة الأديب والفنان في نظرك؟ أليست هي في توجيه الرأي العام؟..

قلت:

ـ أعتقد أن أسمى رسالة للأديب والمفكر والفنان ليست في توجيه الرأي العام بل في خلق الرأي العام.. فإن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة.. أي دفع الناس إلى اتجاه بعينه، وفرض رأي بالذات على عقولهم والسيطرة بفكرة أو معنى أو مرمى على نفوسهم..

وفي هذا انتصار بلا شك لفكرة المفكر أو لرأي الأديب أو مرمى الفنان.. ولكن هذا الانتصار الشخصي هو في ذات الوقت خذلان لآراء عدد كبير من الناس، وفناء لشخصية طوائف عديدة من البشر... مثل هذا الانتصار على آراء الناس وقلوبهم مفهوم من رجل السياسة... لأن وجوده قائم على السيطرة المطلقة على المجموع.. ولكن الأديب أو المفكر أو الفنان رجل تكوين وتربية وخلق.. لا رجل سيطرة وانتصار.. فهو لا يحب أن يلبسك رأيه، بل يحب أن يخلق فيك رأيك.

قالت العصا:

ـ إنك تفترض أن الناس جميعاً قابلون لأن يكونوا أحراراً.. وتنسى أن أغلب البشر لا يستطيعون ولا يريدون أن يكون لهم رأي... إنما هم يستسهلون أن يرتدوا الآراء التي تصنع لهم صنعاً.. .

قلت:

ـ نعم هنا المشكلة.. وإنها لتتفاقم.. لأنه باتساع نطاق الحضارة أصبح من الضروري للناس أن يتخذوا لهم آراء كما يتخذون لهم سيارات وأردية وأجهزة للإذاعة.. وإن الكسل والسرعة والسهولة تدعوهم إلى طلب هذه الآراء

مصنوعة عند من يحسن تقديمها إليهم في صناديق مجهزة مبسطة.

قالت العصا:

ـ لعلنا اقتربنا من الحقيقة.. وهي أن عمل الأديب أو المفكر أو الفنان هو خلق أولئك الذين يصنعون الآراء للجماهير!..

قيمة الأشخاص والأشياء

قالت العصا:

ـ ألست ترى أن الإنسان كلما صعد في مراقي الفكر بدت له الأحداث والأشخاص هزيلة ضئيلة؟

قلت:

ـ هذا صحيح... ولا يصدق هذا على الإرتفاع الفكري وحده.. أنما يصدق ذلك على كل ارتفاع فمن يصعد إلى قمة الهرم يبصر الناس كأنها النمل، والبيوت كأنها الأكواخ، والسيارات كأنها ألاعيب أطفال... ولكن السؤال الجدير بأن يطرح هو: هل من يبصر الأشياء والأشخاص من العلو، يراها على حقيقتها؟

قالت العصا:

"وهل من يبصر الأشياء والأشخاص وهو في مستواها يراها على حقيقتها؟

قلت:

ـ لست أدري.. وليس من السهل أن نعرف أين نجد حقيقة الأشياء والأشخاص؟ أهي في تلك الضالة التي نراها عليها من العلو؟ أما تلك الضخامة التي نراها عليها من الأسفل؟ أن أصعب شيء في الوجود هو صحة الحكم على حقيقة الأشياء والأشخاص.. لأن هذا يتطلب أن تنظر إلى هذة الحقيقة من جملة زوايا.. وأن تكون على جانب كبير من المعرفة والتجربة.. وأن تتأنى في مراجعة القيم والأقيسة والأبعاد..

حتى تستطيع بعد كل ذلك أن تصدر حكماً يقرب من الصحة لذلك طالما سمعنا أن عظماء الرجال والقادة هم الذين يستطيعون أن يصيبوا في الحكم على الأشياء والأحداث والأشخاص.. إن أعظم ما يحملني على احترام شخص هو عدم خلطه في القيم، وكثيراً ما احترمت أشخاصاً لما يبدو من ثقافتهم، فما أن يخلطوا في قيم الأشياء، والأشخاص، حتى ينهار احترامهم من نفسي..

قالت العصا :

صـدقت.. إن الشـخص ذا القيمـة هـو الـذى يعـرف القـيم كما يعرف الصائغ درجات الذهب!...

المقامر والمرابي

قالت العصا:

ـ لو تأملت الطبائع، وتتبعت وسائل نشاطها، لتبين لك أحياناً أنها تكاد تنقسم إلى فئتين: فئة تختار للوصول الطريق القصير على ما فيه من خطر.. وفئة تختار الطريق الطويل الذي لا خطر فيه.. فئة تمتطي الحظ.. وفئة تمتطي الصبر.. وحصان الحظ سريع، ولكنه قد يكبو.. وسلحفاة الصبر بطيئة ولكنها لا تكبو أبداً.. وراكب الحظ يريد أن يمحو الزمن الذي بينه وبين الهدف.. وراكب الصبر يريد أن يستخدم الزمن في الوصول إلى الهدف..

قلت:

ـ هذا التقسيم لا يصدق على الأفراد وحدهم.. إنما هو يصدق أيضاً على الأمم.. فمن الأمم من ادخرت قسطاً من القوة فلم تلق به كله على مائدة الحظ.. وتنزل به ميدان المغامرة.. بل وقفت به تتربص الفرص، تنفق الضئيل منه ليعود عليها بعد زمن بفوائد كثيرة تجيئها لتضمها إلى رأس المال، ثم تأخذ منه بعضه القليل، إذا لاح صيد أو ظهرت سانحة، فتعطى بحذر، وتدع الزمن ينضج الثمر على مهل.. فتحصد وتضيف، ثم تعاود الكرة، خطوة خطوة، وصفقة صفقة..

متخذة من الطمع مركبة، ومن الصبر والزمن جوادين.. هكذا تكونت الامبراطورية البريطانية مثلاً في يوم من الأيام.. أما الأمة الألمانية مثلاً فقد رأت أنها تملك ذات يوم من القوة والكفاءة والنبوغ ما يؤهلها لمركز ممتاز.. وكبر على نفسها أن تستجدي الزمن أو تختلس المغانم من الظروف المواتية، ومن ضعف الضعفاء، فآثرت أن تواجه الحظ بكل ما في يدها، وأن تنتزع منه مجدها قسراً..

قالت العصا:

ـ حقاً.. هذا خير مثل لاختلاف الطبائع والوسائل... في ألمانيا طبيعة المقامر... وفي إنجلترا طبيعة المرابي!..

الحاصل صفر

قالت العصا:

ـ من أبرز العيوب في مصر والشرق العجز عن الاستمرار... فقلما ترى شخصاً يستأنف عمل شخص آخر... في كل نواحي النشاط ترى الاتجاه الغالب هو أن يبدأ الشخص بهدم عمل سلفه، قبل أن يفكر في مباشرة عمله.. في السياسة والفكر والأدب.. والفن الخ.. شعارنا هو: كل ما تم قبلي لغو يجب أن يزول!..

قلت:

ـ هذا حقاً شعارنا... بينما شعار غيرنا من الأمم التي أنتجت هو: كل ما تم قبلي ربح يجب أن يزاد عليه.. ففي

السياسة خطوات تتلوها خطوات، وخطط تدعمها خطط، والحجر الذي أرسى يقام عليه حجر، فإذا نحن أمام برنامج اجتماعي ضخم كأنه بنيان ينمو على توالي الأزمان، على الرغم من اختلاف الحكومات..

وفي الفكر والأدب والفن: المجهودات تضاف إلى المجهودات.. ويقدر الخلف أعمال السلف، ويرون فيها ثروة للأمة يجب أن يتولد منها ثروات.. فيظلون يدرسون ما تم بروح الاهتمام، وينظمون ما حقق وما هو في سبيل التحقيق، ويضعون الأفكار فوق الأفكار كمن يضع الدينار فوق الدينار.. فإذا نحن أمام كنز من كنوز القريحة الإنسانية تفاخر به أمته وتدل به على أهل الشرق الغارق في أهوائه، النائم في لحظات يهدم آخرها أولها وتنسى إحداها الأخرى..

قالت العصا:

ـ لعل الفرق بين الشرق وبين غيره من الأمم المتقدمة هو أن هذه الأمم تعرف عمليات الجمع.. فهي تجمع العمل على العمل، فالحاصل بالطبع عمل.. بينما الشرق لا يعرف غير عمليات الطرح.. فهو يطرح العمل من العمل والحاصل بالطبع صفر!..

الشرق الشحاذ

قالت العصا:

ـ لماذا ينظر الغرب دائماً بعدم اكتراث إلى الشرق العربي، ويقف منه موقف غير الحافل بأمره، ويلتفت إليه الإلتفاتة العابرة، ويشير إليه الإشارة الخاطفة، ولا يراه إلا كائناً جغرافياً، يقوم على هامش الحضارة الإنسانية؟..

قلت:

ـ السبب في ذلك بسيط: وهو أن الشرق العربي يقف دائماً من الغرب موقف السائل الذي يمد يده بطلب.. فهو يقول للغرب أعطني حريتي.. وأعطني استقلالي.. وأعطني

قروضاً.. وأعطني علماً.. وأعطني أفكاراً.. وأعطني مبادئ.. وأعطني آلات.. وأعطني مصنوعات.. وأعطني خبراء.. وأعطني وأعطني.. الخ.. ما من مرة قال الشرق للغرب: "خذ" حتى يسترعى اهتمامه. إن الإنسان قد جبل بطبعه على أن يهتم بمن يعطيه، لا بمن يأخذ منه. وماذا يكون نصيب ذلك الذي يتبعك دائماً في الطريق يقول لك في كل حين: أعطني من فضلك.."؟ ألا يكون نصيبه منك في أغلب الأحيان: "الله يحنن عليك!" تقولها بغير اكتراث.. وقد يخطر لك أن تستخدمه في أن يحمل عنك ثقلاً مادياً لا شرف فيه، أو أن تستغله في معاونتك معاونة مهينة مما يقوم به الخدم والعبيد والتابعون؟!.. فلو أن الشرق قال للغرب ذات مرة: "خذ مني فكرة تنفعك" لنظر إليه الغرب فوراً نظرة الاهتمام والاحترام..

قالت العصا:

"وماذا عند الشرق العربي اليوم مما يستطيع أن يعطيه للغرب؟!..

قلت:

ـ مجرد الإشتراك في حل مشكلاته يكفي.. ما من مرة قال الشرق للغرب إني مشغول بحل قضية لك أيها الغرب، لا لي. حبذا لو أن "جامعة عربية فكرية" تنشأ لبحث مشاكل الغرب للغرب.. عند ذاك يعترف الغرب أن الشرق ليس مجرد شحاذ!..

العصر "الشكوكي"

قالت العصا:

ـ العالم المتحضر يعيش اليوم في عصر الذرة.. أي في عصر يتسم بروح السباق العنيف في ميدان الاكتشافات العلمية والفنية، وروح التنافس البالغ في ميدان الأفكار والمبادئ الاقتصادية والاجتماعية.. أما نحن فإن الناظر إلينا يدهش ويحار ولا يدري أي روح تسيطر الآن على الحياة المصرية؟!

قلت:

ـ إن النظرة الفاحصة إلى حياتنا المصرية اليوم لا يمكن أن تلم إلا بشيء واحد: هو أن الروح المسيطر علينا الآن هو: روح التهريج.. فنحن قوم نريد أن نضحك ونمزح

ونهزل في كل حين.. ونحن نريد من كل شيء المظهر ولا نعبأ بالجوهر.. كل مشروع حيوي ينقلب عندنا إلى احتفالات وإعلانات ولاشيء بعد ذلك.. وكل هدف عندنا هو الوصول الشخصي بطريق الطبل والزمر ولا عمل خلف ذلك.. لقد أصبح شعار ا لنجاح في كل الأفواه: "هرج تصل".. حياتنا قد اتسمت بروح التهريج إلى حد نرى فيه الصفوة من علمائنا في الطب أو الهندسة أو الكيمياء أو الزراعة أو القانون الخ.. .

والطبقة المثقفة من أساتذة الجامعات وطلابها إذا أرادوا إحياء حفلاتهم السنوية لجؤوا إلى جماعة المغنين السوقيين والمضحكين المبتذلين والراقصات الماجنات، ويتهالكون على الإذاعة، فلا يخطر لسامع أنها لعلماء أفاضل!..

قالت العصا:

ـ حقاً.. العالم يعيش في عصر الذرة.. ومصر تعيش في عصر "شكو كو".. وهو ولا شك رمز لعصر انحلال خلقي يمكن أن يفتك بروح أمة وكيانها أسرع مما تفتك بها قنبلة ذرية!..

الإنسان .. ذلك الجبان

قالت العصا:

ـ من طبائع الناس التي تنم على ما ركب فيهم من خسة ذلك الاحتقار، الذي ينظرون به إلى الكلب، وهو لهم الصديق الأمين المحب..

قلت:

- حقاً إن الكلب للإنسان أكثر من صديق.. وأين هو الصديق الذى يخدمك طول العمر، دون كلل ولا ملل... يرعى غنمك، ويحرس دارك، ويتبعك في الرخاء والشقاء ويقودك في ظلام الليل، ويجلس عند قدميك يؤنس وحشتك ووحدتك، ويدفع عنك إذا مسك سوء أو هددك خطر، فإذا أشرت إليه بالابتعاد ضيقاً به، أو للخلو بنفسك وصحبك،

ابتعد صاغراً بأدب ومودة، وقف منتظراً على مرمى بصرك أو صيحتك.. فاذا بدرت عليه منه هفوة ورأيت تأديبه فأفرطت وقسوت وانهلت عليه ضرباً بالعصا أو ركلاً بالقدم، فإنه يقعي على ذنبه أو يطأطئ برأسه ويتلقى تأديبك بصبر جميل، وهو القادر أحياناً على أن ينقض عليك بمخلبه ونابه ويفتك بك في طرفة عين.. ولكنها الصداقة والمودة والحب العميق... فهمها هذا المخلوق العجيب على أكرام وجوهها.. وهو مع ذلك ليس بالنذل ولا بالجبان.. فكلنا يعرف مواقفه التي تنطق بالشجاعة والوفاء والإقدام.. فكم من مرة هجم ذئب أو وحش على إنسان أو غنم إنسان فانبرى كلبه للمهاجم فغلبه أو طرده أو مات في الجهاد... وكم سمعنا عن قصة ذلك الرجل الذى نهض في الصباح فوجد كلبه صريعاً تحت فراش طفله، وبين مخالب الكلب ثعبان ضخم مقطع إرباً.. فأدرك ما وقع في الليل.. وما دفعه الكلب من ثمن لينقذ الطفل! ولكن العجب هو أن الناس بعد كل ذلك يحتقرون الكلب!

قالت العصا:

ــ يحتقر الناس الكلب على وفائه وأمانته لأنه لا يفترسهم.

مطية الإنسان

قالت العصا:

ـ هل تعتقد أن هناك ما يسمى ثروة النفس حقاً بالمعنى الذى يطلق على ثروة "المال"؟..

ـ أعتقد أكثر من ذلك... أن "الثروة" هبة من الله وهى قد تكون في النفس... وقد تكون في المال... وفى النادر جداً أن يصطفي الله شخصاً واحداً يمنحه الثروة في المال والنفس معاً.. ولكن القاعدة الغالبة هي أن نرى في هذة الدنيا صاحب المال قد حرم من ثراء النفس، ومن كانت له ثروة النفس حرم من ثروة المال... كما أن من الخلائق من حرم الثروة على الإطلاق.. سواء في المال أَمْ في النفس..

قالت العصا:

ـ أهو قدر مدبر أم نظام طبيعى؟..

قلت:

ـ إنى لا أفرق كثيراً بين النظام والقدر.. لأن تدبير الله هو تنظيمه، وما نسميه قدره هو في أكثر الأحيان قانونه... وفى حالتنا هذه يجري كل شئ على سنة النظام الطبيعى الذى ركبه الله في الإنسان.. فالشخص الذى يشغل بجمع المال، مع ما في وسائل جمعه عادة من عناصر تأباها النفس الأبية، الصافية النقية، يرى في هذا المال من غير شك الفضيلة الأولى التي تستحق منه هذا الجهاد والاجتهاد وتكريس الحياة وشغل البال.. وهو بهذا الاهتمام يجعل "نفسه" من حيث لا يريد ولا يدري مطية لهدفه.. فهو إذن يجعل "المال" في مكان الراكب و"النفس" في مكان المركوب.. بينما نجد العكس فيمن انشغل عن جمع المال بالفكرة السامية أو العاطفة العالية.. فهو يجعل المال مطية.. ولا يسمح له أن يشغل من حياته أكثر من القدر الضرورى للوجود، فهو إذن يضع "النفس" في مكان الراكب و"المال" في مكان المركوب..

قالت العصا:

ـ إذا أردت إذن أن تعرف إنساناً فنظر إلى مطيته:

هل هي "النفس" أو هو "المال"!..

نوع من النبوغ

قالت العصا:

ـ يخيل إلى أن في مصر خبيراً عبقرياً مهمته الدقيقة هي: أن يضع كل شيء في غير محله!..

قلت:

ـ هذا صحيح.. فإن هذه الإجادة والدقة والإتقان والتفنن في وضعنا الأشياء في غير محلها قد بلغت حداً لا يمكن أن نعزو فيه الأمر إلى مجرد الفوضى أو المصادفة أو الهوى.. إنما هي سياسة مرسومة.. أو خطة موضوعة.. أو برنامج مقرر أو نظام مدبر.. لكأن لدينا حقاً رجلاً ممتازاً موهوباً له سلطة كالسلطة التي كان ينبغي أن تكون لرئيس ديوان المحاسبة.. تعرض عليه الأشخاص والمناصب والأموال

والمرافق.. فيسأل: ما هو المطلوب لهذا المنصب؟ فإذا قيل له: مهندس.. قال: ضعوا فيه محامياً.. وإذا قيل له: محام.. قال: ضعوا فيه طبيباً.. فإذا وجد بالمصادفة أن هذا المحامي أو الطبيب على شيء من الدراية والكفاءة.. بحث وكد واجتهد حتى يعثر على الشخص الذي لا يدري كثيراً أو قليلاً على الموضع الذي يوضع فيه..

ومثل هذا يتبع في إنفاق المال.. فإذا قيل له: نريد اعتماداً لإدخال ماء الشرب في القرى، قال: لا داعي لشرب الفلاح، اصنعوا بالمال داراً فخمة للبريد.. وإذا قيل له: دبر لنا دولارات لشراء أدوية وآلات، قال: بل اشتروا بها جوارب وسيارات.. الخ..

قالت العصا:

ـ أو تظن من السهل دائماً إتقان هذا الفن؟.. إن الذهن الذي لا يخطئ في وضع الشيء في غير محله، لا يقل نبوغاً عن الذهن الذي لا يخطئ في وضع الشيء في محله.. وكل أمة لها نوع النبوغ الذي تستحقه!..

خزان آخر...

قالت العصا:

ـ لست أدري أأنت من المتفائلين أم من المتشائمين..

ولكن الذي لا شبهة فيه للنظرة العابرة هو أن مصر تتقدم سريعاً إلى أسفل.. ويكفي أن تقارن بين ما كان عليه الحال منذ عشرين عاماً، وما وصل إليه الحال اليوم في كثير من النواحي العلمية والخلقية والاجتماعية والفكرية والفنية.. الخ.. انظر إلى أساتذة الجامعة في الماضي وأساتذتها اليوم.. وانظر إلى الأخلاق العامة في الماضي، وإلى الأخلاق العامة اليوم.. وانظر إلى حرية الفكر فيما مضى وحرية الفكر في السنين الأخيرة.. وانظر إلى ملاهينا وأغانينا

بـالأمس وملاهينـا وأغانينـا وحفلاتنـا في الأيـام الحاضـرة، أيمكـن أن نـرى في كـل هـذا شـيئاً غـير سـير سـريع نحـو الانحدار؟

قلت:

ـ لا أريـد أن أتشـاءم أو أتفـاءل قبـل بحـث الأسـباب... إن مصـر قـد تحولـت في السـنوات العشـرين الماضـية تحـولاً اقتصادياً محلوظاً، كـان من نتيجته إثراء طبقـة من النـاس إثـراء سـريعاً أدى إلى نشـر مثـل عليـا جديـدة في المجتمـع.. أو على الأصح مثل ليست عليا.. لأنها بذرت في النفوس بذور المادية والوصولية والاستهتار.. ولكـن هـذا الأمـر ليس بوقف على مصر وحدها..

كـل بـلاد العـالم حدث فيهـا مثل ذلـك، يـوم تمت فيهـا هـذه التحـولات الاقتصـادية.. مـع هـذا الفـارق: وهـو أن تلـك الـبلاد الأخـرى كـان فيهـا مثـل عليـا حقيقيـة قويـة قبـل أن تغزوهـا المثل الدخيلـة غير العليـا.. فلم يستطع هـذا الغـزو أن ينـال كـثيراً مـن التقاليـد العريقـة المغروسـة في العلم والخلق والفكـر والفن.. أما مصر فلم تكن قد تهيأت بعد لمثل هـذا الغزو المادي..

قالت العصا :

ـ العـلاج الآن هـو أن نبـادر بإقامـة خـزان آخـر إلى جـوار خزان أسوان.. خزان للمثل العليا.. .

الريحاني الحي...!

قالت العصا:

ـ كنت تصغي أمس الأول إلى شريط سجل عليه فصل للريحاني... وكان التأثر بادياً عليك، لا يستطيع الضحك أن يحجبه... وكانت شفتاك تهتزان بكلمات.. ترى ما هي؟

قلت:

ـ لعنات كنت أستنزلها في سرّي على من أهمل في تسجيل أعمال هذا الفنان.. وبركات كنت أدعو بها لمخترع هذا الجهاز العجيب!.. اختراع يكاد يلغي الموت إلغاء.. فها هو ذا الريحاني يضحك ويضحكنا، ويبدع ويمتعنا وهو في قبره عظام نخرة!.. لقد سجل الشريط صوته وهو الآن في الأموات، وسجل معه أصوات الناس من جمهوره، وهي تضج

بالضحك والإعجاب، وأكثر هؤلاء الناس اليوم ولا شك أحياء يرزقون... ولكن السامع يخيل إليه أن هذا الميت أكثر حياة من هؤلاء الأحياء!.. ولست أعني بالحياة هنا الحياة المعنوية.. بل أقصد الحياة المادية نفسها... لقد كان شعوري أن الريحاني حي بكل معنى الحياة.. إنه يذيع مسرحيته وأنا أسمع.. اليوم وهو في القبر كما كان يفعل بالأمس وهو في مسرح "ريتس".. لا أكاد أشعر بفرق.. كل الفرق هو بالنسبة إليه هو.. إنه هو الذي لا يستمتع بتصفيقنا أو بإعجابنا... وإنه مستمر في منحنا فنه، ونحن انقطعنا عن توصيل شكرنا إليه.. إنه القادر على التأثير فينا، ونحن العاجزون عن التأثير فيه..

قالت العصا:

ـ لئن كانت الحياة فعلاً وتفاعلاً وأثراً وتأثيراً.. فهو بالنسبة إلينا الحي.. ونحن بالنسبة إليه الأموات!..

أصدقاء الرقاء

قالت العصا:

ـ ما الذي ترجوه من الصديق؟. وما الذي ينبغي له أن يفعل حتى يكون جديراً أن يوصف بالوفى..

أيحسن به أن يقف إلى جانبك في وقت الشدة وأن يختفي عنك وقت الفرج.. أم يخلق به أن يقبل عليك وقت الفرج، ويختفي عنك وقت الشدة؟!

قلت:

ـ هناك فرق بين ما نتعلمه في الكتب وما نتعلمه في الحياة.. أما الكتب فهي تقول لنا إن الصديق الحق هو الذي يلازمنا في الشدة ويؤازرنا في الضيق.. فإذا جاء الفرج ابتعد

عنا حياء وخشية من أن يثقل علينا أو يوحي إلينا بأنه ينتظر على وفائه ثمناً.. أما الحياة فهي تقول العكس وترينا الصديق المرموق أنه ذلك الذي يختفي عنك وأنت في شدتك.. أو يشغل عنك باكتساب المغانم في صحبة غيرك.. حتى إذا ما ابتسمت لك الدنيا وانقشع غيمك، ظهر يجري نحوك مهللاً مكبراً، ومكث بجوارك الليل والنهار ملازماً مؤازراً.. .

قالت العصا:

ـ ومن الذي له الغلبة؟!

ـ العجيب أن الغلبة لذلك الذي يعرفنا ويلازمنا وقت الرخاء!.. ولعل هذا هو الطبيعي الذي لا عجب فيه.. فالغلبة دائماً للجريء.. حتى وإن كانت الجرأة على معنى الصداقة..

قالت العصا:

ـ وهل يستطيع الإنسان أن يحترم صديقاً من هذا الطراز أو يعتمد عليه؟.. ولكن من يدري؟. ولعل الإنسان يحب الصداقة التي تسره أكثر من الصداقة التي يحترمها!

عصير الذهن

قالت العصا:

ـ هل رأيت هذه المكتبة العامرة بالكتب في أشهر ميادين القاهرة، كيف تحولت أخيراً إلى حانوت للمرطبات؟! إن صاحبها هو صاحبها لم يتغير.. ولكنه قلب نفسه بكل بساطة من "كتبي" إلى "شربتلي"!..

وعندما سئل في ذلك قال:

ـ الناس لا يريدون اليوم عصير الذهن.. إنهم يريدون عصير الليمون!..

قلت:

ـ هذا صحيح مع الأسف.. وهي ظاهرة خطيرة تستحق العناية والعلاج، فإن انصراف الناس عن غذاء العقل نكبة

كبرى لأمة في طريق التحضر.. وما قيمة التعليم في أمة إذن، إذا كانت نتيجته تخريج زبائن للمشارب لا للمكاتب؟! إن أبقى درس وأهم كسب للطالب في المدرسة ليسا في تلك المعلومات المحددة، التي ستنسى حتماً بعد حين، ولكنها في غرس ملكة المطالعة التي ستلازمه في كل حين.. لا خير ولا نفع في أرقى المدارس والجامعات إذا خرج منها الطلاب يلعنون كتبهم ويختمون بالشمع الأحمر على رؤوسهم بينما الطالب الذي ينشأ فيه حب المطالعة والاطلاع، تنشأ في عين الوقت جامعة كبرى في نفسه تزوده بالمعارف المتجددة طوال أيام حياته.. ذلك واجب المدرسة الأول: تعلمنا حب القراءة.. وتمرن عضلاتنا الفكرية على هضم أغذية العقل.. ثم تدفعنا إلى الحياة نزدرد ثمرات الذهن.. .

قالت العصا:

ـ حقاً.. إن الإنسان يولد زبوناً بالفطرة لعصير الليمون.. ولكنه لابد أن يعد إعداداً ليصير زبوناً لعصير الذهن!..

الفن في البرلمان

قالت العصا:

ـ اعتاد البرلمان المصري في كل عام أن يتربص بفريسة هزيلة ضئيلة... ما أن تتقدم إليه تتعثر في هزالها وضآلتها، حتى يعمل فيها طعناً وتقطيعاً وشطباً بالأقلام الحمراء... هذه الفريسة المسكينة هي اعتماد فن التمثيل!.. فما هي الضغينة المقيمة بين البرلمان وبين الفن؟!

قلت:

ـ ما أحسبها ضغينة... ولكنه احتقار وقلة تقدير لشيء لا يبدو نفعه لكل الأذهان. العلاج هو أن نعرض الفن وقيمته ونفعه القومي أمثال العيون.. ولا أريد في هذا المقام أن أسوق غير مثال واحد، مثال لا مبالغة فيه، لأنه الواقع، وأدعو

الناس إلى تحريه.. من أهم دعائم الدعوة العالمية لإسرائيل فرقتان عندها للتمثيل.. إحداهما تسمى "الهابيما" والثانية تسمى "أوهيل" بذل فيهما من العناية ما ارتفع بهما إلى درجة التفوق الدولي، فجابتا المدن العظمى في أوربا وأمريكا تعرضان روائع الفكر الخالد من أعمال شكسبير وراسين وستيفان زفايج مما جعل صحف تلك البلاد المتحضرة تتحدث بفضلهما على الفكر العالمي والثقافة العالية.. ولهاتين الفرقتين عشاق ومعجبون في العواصم الكبرى، مع أن التمثيل فيهما بالعبرية.. ولقد فازتا قبل الحرب بمبالغ طائلة وتبرعات هائلة مكنت إسرائيل من تشييد مسرح في تلك أبيب تكلف نحو مائتي ألف من الجنيهات، يعتبر من أفخم مسارح العالم...

قالت العصا:

ـ حقاً.. نحن نسخو بآلاف الجنيهات على مقال سخيف تنشره صحيفة أجنبية دعاية مأجورة لنا.. ونضن بهذا المبلغ على إنشاء فن قومي يستطيع أن يقوم لنا بدعاية كريمة أمام السائحين في الداخل وأمام الجاحدين لحضارتنا في الخارج!..

هل المداد هباء؟

قالت العصا:

ـ يخيل إلى أن الكتابة هي أضعف وسيلة للتأثير في المجتمع... وذلك أن من لديه في الغالب حسن الاستعداد لأن يسمع نجده في أكثر الأحيان لا يقرأ.. ومن يقرأ فهو قلما يسمع... ولو كان في الكتابة نفع، لرأينا المجتمع قد تغير منذ أمد طويل... ولكن كل قارئ يقرأ وكأن الكلام لا يعنيه.. وإذا فطن فإنه يبتسم ـ ويطوي الورق ويقول: "كلام!".. أو يقول: "تمام".. ثم ينسى كل شيء بعد حين... لماذا؟.. ولمن؟.. تجهدون أنفسكم إذن يا معشر الكتاب في إهراق هذا المداد الذي لا تبتلعه أرض ولا نفس؟..

قلت:

ـ حقاً.. هو جهد لا يرى له أثر.. فالماء يروي الشجر، وتحصد منه بيدك الثمر.. ولكن المداد؟.. ماذا ينبت؟.. أين هو الثمر الذي نراه بأعيننا قد أينع في الناس بفعل المداد والقلم؟.. إنه لعمل مجحف ميئس.. ومع ذلك يكابده صاحبه ويصر عليه وهو موقن أن شيئاً لن يتغير وأن نفساً لن تتحول.. على الأقل بالسرعة التي تشعره بلذة النجاح ولكنه يمضي في الكتابة وينسى النتيجة.. إلى أن يعتاد العمل دون أن يسأل عن الأثر... وكأنه ثور الساقية، يدور بها مغمض العينين، لا يدري أذهب ماؤها في الهباء أم ذهب في الغيطان؟!

قالت العصا:

ـ ربما كان هذا هو السبب في قصور القلم في الظاهر وهباء مداده... أن غيطان النفوس تحتاج إلى أجيال، حتى تصل إلى أغوارها مياه الأفكار، وتهيئ أديمها للنبت والأثمار!..

قوة الروح

قالت العصا:

ـ هل تعتقد حقاً أن الروح يمكن أن يكون لها اثر فعلي في مجتمع ما... وأن القيم الروحية يمكن أن تكون مصدر سلطة يحسب حسابها في بلد من البلاد؟..

قلت:

ـ أومن بذلك كل الإيمان.. على شرط أن تتجلى الروح بنورها وحده.. لا ببرق زينة مادية.. وأن تعتمد القيم الروحية على جوهرها وحده.. لا على مظاهر قوة دنيوية.. أن اليوم الذي نستطيع فيه أن نجعل الناس يشعرون بوجود سعادة خفية ليس مبعثها المادة... وأن نجعل المجتمع يشعر بوجود فرد أو جماعة يستمدون هيبة وقوة وجلالاً من مجرد قيم معنوية

عارية عن المال والجاه... لهو اليوم الذي يمكن فيه إقناع الناس بوجود الروح.. ذلك أن الناس لا يرون أمامهم غير السعادة واللذة اللتين يأتي بهما الجاه والمال.. فهم إذن معذورون إذا اندفعوا نحو هذا النهر الأصفر... يعبون منه ما استطاعوا، ليرووا ظمأهم الذي لن يروي.. لأنهم يجهلون وجود ذلك الجدول الآخر الصافي الخفي الذي لا بريق فيه، ولكن فيه أثر الري... ما من مثل واحد قام ليثبت للناس أن رجلاً واحداً بغير المال والجاه استطاع أن يكون سعيداً وأن يكون قوياً.. خلا الأنبياء والرسل.. وخلا بعض الأفذاذ من الرجال أمثال "غاندي".

قالت العصا:

ـ أوليس في هؤلاء الدليل؟... كلهم غيروا وجه العالم.. يكفي أن ينهض رجل واحد.. رجل روح حقيقي ليقلب التاريخ.. أو بعد هذا نشك في قوة الروح؟!

لو حكم الفلاسفة

قالت العصا:

ـ كلما حل بالدنيا الخراب، وفتكت بالإنسانية الحروب وتوالت المصائب والمآسي، تساءل الناس: لماذا لا يقود الفلاسفة زمام العالم؟.. إنهم بتفكيرهم المتسامي عن الغرائز قد يستطيعون تجنيب العالم ويلات العواطف المتأججة التي تلهب النفوس وتدفعها إلى المجازر والنكبات!..

قلت:

ـ ما من شك أن الفلاسفة لو تسلموا أعنة الدنيا لما وقع فيها شيء مما نراه الآن.. بل لما وقع فيها شيء على الإطلاق.. أذكر أن أحد المفكرين تساءل يوماً: ما الذي يجري لو أن مؤلفي المآسي المشهورة وضعوا بدل أبطالهم فلاسفة.؟ لو أن

شكسبير وضع بدل عطيل فيلسوفاً، لما قتلت ديدمونة! ولو أن سوفو كل وضع بدل أوديب فيلسوفاً لما فقأ عينيه... الوحيد من بين أبطال المآسي الذي أريد له قدر من التأمل الفلسفي وهو "هاملت" ظل متردداً بين الأقدام والإحجام، لا يدري أهو مصيب أم مخطئ، حتى كادت تفلت منه كل فرص العمل.. الرواية الكبرى أيضاً وهي الحياة.. لو أن أبطالها المحركين لمصائرها كانوا فلاسفة، لا ساسة ولا قادة جيوش.. لوقفت حركة هذه الرواية من قديم عند الفصل الأول!.. فالفلاسفة بتحكمهم في الغرائز ما كانوا ليسمحوا بحروب ولا بنزاع ولا بثورة ولا بانقلاب إلخ... أي أن التاريخ يجب أن يقف عاطلاً بلا عمل، أمام حكمة الفلاسفة التي تمنع تلك النزاعات والأخطاء والأهواء التي تنبت منها الحوادث التي تهز الناس وتتيح لهم التغير والتطور..

قالت العصا:

ـ حقاً.. لا بد في "جهاز" الإنسانية من "محركات" الغريزة إلى جانب "فرامل" الحكمة..

كرة القدم

قالت العصا:

ـ أجمع هواة كرة القدم ممن يشاهدون المباريات الدولية التي تجري بين الفرق المصرية والفرق الأجنبية على ظاهرة بعينها: هي أن مصر تملك لاعبين من الطراز الأول.. لو أنك أخذتهم فرداً فرداً لتبين أنهم أمهر وأبرع في الغالب من زملائهم الأجانب. وكل منهم يأتي بالمدهش المعجب في حلبات اللعب.. ولكن هؤلاء الأفراد الممتازين إذا انتظمتهم المجموعة، أي ما يسمونه "التيم"، وواجهوا المجموعة الأخرى الأجنبية فسرعان ما يظهر ضعفها أمام "التيم" الأجنبي!..

قلت:

ـ السبب واضح هو أن "التيم المصري" كل فرد فيه يلعب مستقلاً عن المجموعة.. وتطغى عليه براعته الخاصة، فيتصور أن في إمكانه أن يقذف الكرة إلى الهدف بقدمه وحدها. ويؤدي ذلك إلى ضياع الرابطة بينه وبين زملائه اللاعبين وإلى اختلال النظام الذي يجعل منهم وحدة منسقة.. فإذا الفريق مفكك.. واللعب مرتجل.. والمصادفة هي التي تقرر النجاح أو الفشل. في حين أن "التيم" الأجنبي، كل فرد فيه مكمل لزميله، لا منفصل عنه، معاون له وداعم، لا عائق ولا مزاحم.. يرى الفخر في أن تحصل المجموعة كلها على النصر، دون نظر إلى السبب فيه..

قالت العصا:

ـ تلك هي سمات المجتمع الراقي... بنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً.. وأن أبناء هذا المجتمع المتين لتظهر فيهم صفات التعاون والتعاطف، جدوا أو لعبوا، فتقودهم إلى الفوز المبين..

لا موت في أمية حية

قالت العصا:

ـ من مضحكات مصر الحديثة أن نسمع فيها من يتكلّم عن "الخلود" وكل شيء فيها يموت بيد الجهل والإهمال والجحود..

قلت:

ـ حقاً.. نحن أمة تعيش من يوم ليوم.. لا ماضي تواصله.. ولا حاضر تجد فيه.. ولا مستقبل تبنيه.. يظهر فيها أحياناً النبوغ والذكاء والاجتهاد كأنها زهرات نبتت في مستنقع تزهر في الصباح وتذوي مع المساء.. دون أن تجمعها يد في آنية... ولنحص ما بقي لنا أو ما أبقينا عليه من آثار أمواتنا..

في العلم.. ألم يكن لدينا عالم أو اثنان تركا بحثاً أو بحثين؟.. من الذي قام بعدهما يمضي فيه أو يتمه أو ينميه؟..

في الفن.. ألم يكن عندنا موسيقي أو اثنان تركا لحناً أو لحنين.. من هم المغنون الذين يرددونهما بعد موتهم؟.. المغني اليوم يلحن لنفسه أغانيه التي ستموت طبعاً بموته، كما حدث لمن سبقه.. وهلم جرا...

وفي الأدب.. ألم يكن لنا أديب أو أديبان تركا مؤلفات ذات معان واتجاهات.. من هم الأدباء أو الأساتذة الذين نهضوا بعد موتهم يفحصون ويشرحون مرامي هذه الأعمال وما عكست من تجارب مؤلفيها، كما يحدث عادة لأي أديب يموت في بلد متحضر ذي أدب لا يموت؟.. ولكننا في مصر كل ما نعمل لأمواتنا النوابغ حفلات تأبين، يُنْسَون بعدها إلى آخر السنين.. وبعد هذا كله يحلو لنا أن نتكلم عن حضارتنا الحديثة! دون أن نفطن إلى أن الحضارة ليست إلا عملية استمرار للجهود والآثار..

قالت العصا:

ـ حقاً.. إن الأمة الحية يحيا فيها أمواتها.. والأمة الميتة يموت فيها أحياؤها..

الثمار الضائعة

قالت العصا:

- يخيل إلى أحيانا أن حياة الأفراد والأمم كحياة شجرة في غابة إفريقية، ضالة في المجاهل لم تطأها قدم بشر... فهي تنمو وتثمر، لمجرد النماء والإثمار، مدفوعة بحيويتها الطبيعية ثم تذوي وتموت، دون أن يقتطف ثمارها أحد... وينبت غيرها وينمو ويثمر ثم يذوي ويموت، وهكذا دواليك... ليس الهدف في كل هذا هو النفع والانتفاع... ولكنه عملية النمو والإنتاج والموت والاستمرار في الجيل التالي.. أي أن قوة الحياة وتحقيقها في هذه العملية المتوالية الدائمة هو المقصود في ذاته.. أما هدف النفع والانتفاع ففكرة آدمية لا تعرفها "الطبيعة"...

قلت:

ـ ما أشقانا لو أن هذا صحيح!.. أيمكن أن نتصور أن حياة الأفراد والأمم.. لا نفع فيها ولا هدف، إنما هي ثمار تنضج وتسقط في مجاهل كمجاهل أفريقيا السوداء؟! حقاً.. قد يقول قائل: "أين ذهبت الحضارة الفرعونية؟ ثم الحضارة الهندية.. ثم الإغريقية والرومانية؟.. أليست ثماراً نضجت وسقطت؟.."

نعم.. ولكنها لم تذهب هباء.. ما من شيء يذهب هباء في هذا الكون!. لأن هذا الكون متصل بعضه ببعض كالبنيان.. كل ذرة فيه تشد ذرة... هنالك لحظات نرى فيها حقاً أن وجودنا ضئيل.. وأن جهودنا تافهة، و أن آثارنا زائلة، وأننا نعمل ونخلق وننتج ليبتلع غداً كل هذا أسود فاغر فاه.. طالما ابتلع من قبلنا حيوات وثمرات!.. لكن، هل معدة هذا الغد المخيف استطاعت يوماً أن تهضم كل ما ابتلع؟!..

قالت العصا:

ـ فليهضم الغد كل ما ابتلع من أمسه... يكفي أن دمه الجديد إنما يجري بثمرات ذلك الأمس المهضوم!

سوق عكاظ هذا العصر

قالت العصا:

ــ يظهر أن الطريقة التي يتوصل بها الأدب والفن والفكر للوصول إلى الناس قلما تتغير.. لأن الناس قلما يتغيرون، فشعراء الجاهلية كانوا يعرضون روائع فنهم من "المعلقات" في سوق عكاظ.. حيث الناس مجتمعون لأغراض شتى.. منها التجارة والسياسة ومجاذبة الأحاديث ومبادلة الأخبار.. في مثل هذا المكان الذي يحتشد فيه الناس سعياً وراء مطالب هي أبعد الأشياء عن الفن والأدب والشعر، لا يجد الأدباء والشعراء والفنانون وسيلة للدنو من الناس أنجع من أن يعرضوا بضاعتهم الذهنية بين ما يعرض من بضاعة مادية.. في هذا العصر الحديث لا بد أن يكون هنالك شيء

يماثل سوق عكاظ، تجتمع فيه الأذواق، والحاجات والمطالب قلت:

ـ سوق عكاظ العصر الحديث هي الصحافة.. فيها نجد أيضاً السياسة والتجارة والأحاديث والأخبار.. أي كل ما يشغل الناس في حياتهم العادية.. وكل ما يحفلون به وما يحتشدون له.. لذلك نرى الفن والشعر أو الفكر إذا أراد أن يبلغ رسالته إلى الناس في جموعهم، فإنه يلتمسهم في هذه السوق... وأن كان مطمعه الأسمى أن تكون له سوقه الخاصة التي لا تعرض فيها غير بضاعته وحدها.. ولكن هذا المطمع قلما يتحقق بنجاح.. لأن الناس هم دائماً الناس... لا يكثرون إلا في السوق العامة التي يصفون من يغشاها بقولهم: "من لا يشتر يتفرج!".

قالت العصا:

ـ حقاً.. أن الإنسانية لا تتغير ولكن الذي يتغير فيها هو القوالب والأثواب...

سر التاريخ

قالت العصا:

ـ أحقاً يستطيع التاريخ أن يعي كل شيء؟. ما أكثر الأشياء التي يصنعها الناس كل يوم وهم يهتفون: "فليذكر التاريخ!.." وما أكثر الرجال الذين يمضون كل يوم والناس يشيعونهم قائلين: "في ذمة التاريخ!" إني أعجب لهذا التاريخ وأدهش لقوة ذاكرته!..

قلت:

ـ وهل للتاريخ مهمة أخرى؟! إن وظيفته الوحيدة هي أن يتذكر... وإني أتصوره موظفاً عمومياً جالساً في مقعده الكبير يدخن ويسترجع صور الحوادث والأشخاص.. وهو ـ شأن كل موظف مرهق بالعمل ـ قد عاثت الفوضى في

ملفاته وذكرياته.. فهو قد ينسى أحياناً الشخص الخطير، أو الذي ظن أهله وأصحابه أنه سيقيم في رأس التاريخ متربعاً على الوسائد، ليذكر شخصاً كان في عشيرته غير ذي حول و لا طول.. أن التاريخ له منطقته الذي يختلف أحياناً كثيرة عن منطق الناس.. ولكنه لا يرى ذلك.. فهو يؤكد أنه لا يمتاز بشيء على الفرد العادي.. فهو يشكو كثيراً هو الآخر من ضعف ذاكرته... ويعترف دائماً بأن ذهنه معرض للخلط.. ويعتقد تماماً أنه في أحكامه إنما يعبر عن طبائع الناس التي لا تتغير على مدى الأزمان.. بل إنه أحياناً يتواضع أو يتخابث ويدعي الصمم ويقول: "لا أستطيع أن أسمع إلا أكثركم ضجيجاً!.."

قالت العصا:

ـ ومع ذلك فقد ردد كلمات الصامتين.. ما من أحد يعرف سر التاريخ، حتى ولا التاريخ نفسه.. إنه يتذكر كل ما يريد وقتما يريد وهو مضطجع يدخن الأعوام، دون أن يتكلف التفكير أو التدبير...

امتياز الذهن

قالت العصا:

ـ من الواضح أن مصر بدأت تظهر في الميادين الدولية بمظهر التفوق والامتياز في الرياضة والألعاب.. فهي الضاربة للرقم القياسي في العالم كله لعبور المانش وحمل الأثقال والاسكواش راكيت إلخ.. ولكنها في ميادين العلم والفن لم تزل ضعيفة الأثر.. أو في حكم المتأخرة المتخلفة.. فما هو السبب؟..

قلت:

ـ السبب هو أن الممتاز في الرياضة أو اللعب لا يمثل إلا نفسه.. يكفي أن تأتي بشخص حسن الاستعداد، قوي البنية وتحبسه وتدربه وتمرنه.. وتلقي به في الميدان فإذا صادفه

الحظ المواتي مع مرانه ومهارته وقوته فإنه يفوز على الآخرين.. لأن جسم الإنسان واحد في مصر وغير مصر من أمم الأرض.. ولكن الثقافة والعلم والفن شأنها شأن آخر.. فالممتاز فيها لا يمثل نفسه أو جسمه فقط بل هو يمثل القيمة العلمية أو الفنية للأمة كلها.. فهو خلاصة التاريخ الثقافي لبلده الذي قد تمتد جذوره إلى مئات السنين.. وليس من السهل تدريب عالم أو فنان بالسرعة أو البساطة التي يدرب بها لاعب أو رياضي... لأن وزراء العالم والفنان تراثاً ثقيلاً من التحولات والتطورات العلمية أو الفنية التي مرت بها حياة العلم والفن في أمته.. فإذا اخترع أو أنتج عالم أو فنان اختراعاً أو إنتاجاً عالمياً ممتازاً، فليس معنى هذا أنه هو الممتاز في علمه أو فنه فقط.. بل معنى هذا أن العلم أو الفن كله في بلدة قد نضج إلى الحد الذي يسمح بظهوره في المجال الدولي..

قالت العصا:

ـ حقاً.. وهذا هو الذي يجعل الأمم ذات التاريخ العظيم في العلم والفن هي وحدها التي تخرج حتى الآن العلماء والفنانين العظام!..

المعلم والحاوي!

قالت العصا:

ـ هنالك ظاهرة تسترعي التأمل والتعجب:

سر في أي حي شئت.. وجس خلال أي ريف أردت.. وابحث في سجلات أي مصر عرفت.. فن عمارة أو عزبة أو ثروة يمتلكها رجل علم الناس أو أضاء فكرهم أو ارتفع بإدراكهم.. ولكنك ستجد العمارة والعزبة والثروة لمن استغفل الناس واستعبدهم واستغلهم وأضحكهم وهرج لهم وطبل ورقص ودجل وتملق الغرائز وهبط بالمدارك..

قلت:

ـ وما العجب في ذلك؟.. فلنسر في أي حي شئنا ولنراقب أي جماعة من الصبيان معهم قروش أو ملاليم.. ولننظر إلى

مـن يعطونهـا؟. أإلى الحـاوي والأرجـواز والقـراد وبـائع حـب العزيز؟ أم إلى فقيه الكتاب ومعلم المدرسة؟!

هكـذا الشـعوب أيضـاً، خصوصـاً في مراحلـها الأولى: تعطـي كـل مـا في يـدها لمـن يتملـق غرائزهـا الأوليـة ويرضـي أذواقهـا البدائيـة.. ويسـير علـى هـوى عقلـها الفـارغ ولا يجهـد فكرها التافه.. فإذا شبت وارتقت كان شأنها شـأن الصبي الـذي كـبر واتسـعت مداركـه... فهـو لا ينسـى أن يحـتفظ بقسـط مـن قروشـه للكتـاب الجيـد، والهـدف النـافع... لـذلك كلمـا ارتقـت الشـعوب زاد تقـديرها للـذهن المضـيء والعمـل الرفيع.

قالت العصا:

ـ حقاً.. لا يستطيع المعلم أن ينافس الأراجوز في الحصول على قروش الطفل، ولكن هناك ولي أمره الذي يضـمن حق المعلـم.. أمـا الشـعوب البدائيـة فمـن يحـتفظ فيهـا بحقـوق المهذبين وأقدار الموجهين!!

مصنع الشر

قالت العصا:

ــ هل الشر يولد في الإنسان.. أو أن طبيعة الإنسان مفطورة على الخير.. وأن المجتمع هو الذي يغير هذه الطبيعة ويوجه هذه الفطرة؟

قلت:

ــ أكثر اعتقادي أن الإنسان فطر على الخير.. وأن المجتمع له أقوى الأثر في تحويل هذه الفطرة.. واضرب لذلك مثلاً صغيراً له دلالة كبيرة... روى لي طفل هذه الحادثة: أنه بينما كان يلعب على شاطئ البحر عثر بمنديل فيه عشرة قروش.. فأوحت إليه فطرته السليمة وتربيته القويمة أن يمضي إلى رجل البوليس المنوط به حراسة الشاطئ فيسلم

إليه ما وجد.. وتناول رجل البوليس المنديل والنقود من الطفل.. وبدلاً من أن يشكره على أمانته أو يهش في وجهه مشجعاً تجهم له وجحده بنظرة ارتياب واتهام وصاح فيه: "ألم يكن في المنديل أكثر من هذا المبلغ يا ولد؟.." فأجاب الطفل خجلاً مصدوماً مجروحاً في عزته: "لا" ثم مضى وإذا به يقابل طفلاً آخر يبكي باحثاً عن المنديل الضائع، فأخبره أنه وجده وسلمه إلى رجل البوليس ومضى به إليه، فما أن رأى البوليس الطفل الباكي المطالب، حتى نظر إلى الطفل الأول نظرة سخط وغيظ وانتهره بقوله: "سرعان ما أخبرته أيها الكلب!"..

مثل هذه القصة ترينا الطريق الذي قد يتجه إليه الطفل الأمين في مستقبل حياته.. أنه سيؤمن بأن الأمانة خرافة، وأن الحكومة خصم لا معين..

قالت العصا:

ـ مثل هذا المجتمع حقاً هو الذي يصنع بيده من العجينة النقية اللصوص والخونة والمجرمين!..

ثمن الدم

قالت العصا:

ـ يظهر أن هناك علاقة وثيقة بين الحضارة والجيش، أي بين الحضارة والدفاع عنها.. فقد سمعنا تشرشل يخطب كثيراً في الحرب الماضية يستحث جيش بلاده قائلاً: "إننا ندافع عن حضارتنا".. ومثل هذا كان يقوله قادة الجيش الفرنسي، وما من شك في أن هذا كان يقال أيضاً للجيش الألماني الذي يعتقد دائماً أن ألمانيا فوق الجميع..

قلت:

ـ هذا صحيح... أن استبسال الجنود رهين بقيمة ما يدافعون عنه.. أن دماء الأحرار غالية، وعندما تنهض أمة

ذات حضارة لتدفع بأبنائها إلى حيث يبذلون دماءهم فلا بد أن تشعرهم بأن الهدف يستحق الثمن.وهل هناك هدف أسمى من المحافظة على حضارة بلدهم المهددة، هذه الحضارة التي بذل فيها مواطنوهم المهج والأرواح والعقول في سبيل إنشائها، مجداً حياً قائماً يفاخر به المنتسب إليه!.. أن الجندي الإنجليزي أو الفرنسي أو الألماني أو الروسي أو الأمريكي يذهب إلى الميدان وهو مطمئن إلى أن دمه يبذل ويسفك دفاعاً عن بناء أمته الذي يعلم كم من العظماء شيدوه، وضحوا في سبيل تشييده، وكم من مواطنيه يقاسون الشظف والحرمان خلف الخطوط ليشدوا أزره في الميدان ويعاونوه.. ولكن الجندي المصري مثلاً يذهب إلى الميدان ليسفك دمه دفاعاً عمن؟ عن طائفة من اللصوص والسماسرة والمرتشين الرابضين يجمعون المال من دمه خلف الخطوط؟. أم دفاعاً عن حضارة تسير في بلده سير السلحفاة؟. لأنه ما من أحد يفكر في أمته بقدر ما يفكر في شخصه!

قالت العصا:

ـ ومع ذلك رأينا الجندي المصري يستبسل ويبذل دمه عن طيب خاطر، لأنه كريم العنصر، ولكن الويل كل الويل إذا مضينا ندفع به إلى الموت بغير هدف عظيم وظهر سليم؟!..

فرحة الجديد

قالت العصا:

ـ الطفل يفرح بالجديد لأنه جديد.. يهزه إليه الانفعال الوقتي بلمعة الجدة وبهزة المفاجأة...جرب أن تعطي طفلاً لعبة جديدة ولا تدعها في يده لحظة حتى تبادره بلعبة أخرى جديدة، عندئذ تجده قد ألقى من يده الأولى قبل أن يعرف ما بها أو يدرك كنهها، ليقبل على الثانية فإذا فاجأته بلعبة ثالثة رمى الثانية والتفت إلى الأخيرة.. وهلم جرا..

ـ هكذا الشعوب أيضاً في طفولتها.. والمجتمع في طفولته.. يفرح للحدث الجديد، والخبر الجديد، والصحيفة الجديدة والحكومة الجديدة، وكل شيء جديد.. انتفع به أو لم ينتفع.. المهم عنده هو التغيير.. هو أن ينفعل وتثار

عاطفته بالمفاجأة من أي نوع كانت.. وخطورة هذه العادة في مجتمع ما هي أنها تجعله سريع التقلب، سطحي النظرة، قليل الصبر، عاجزاً عن إرساء قواعد متينة لحياته ومقومات نضجه.. فهو يغير ويبدل في الأشياء قبل أن يفهمها أو يفحصها أو يمحصها.. وهو بهذا الخلق الطفولي قد يؤثر في قادته ومفكريه فيرغمهم على إرضاء نزعاته ونزواته.. فيقضي بذلك على كل أمل في إمكان تطوره إلى مرحلة الإدراك الصحيح.

قالت العصا:

ـ ليس الذنب ذنب الطفل، وألاعيب الطفولة.. ولكن الذنب ذنب المربي الذي شجع في الطفل هذه النزعة بالإكثار من تقديم الجديد، فيعوق نموه من عهد اللعب والعبث إلى عهد الفهم والبحث...

الدواء العجيب.!

قالت العصا:

ـ في الدهر ساعة يرفرف فيها السلام.. وتكتمل الصحة.. ويصفو المزاج.. لو عرفنا اسمها أو صفتها، لحصل لنا من ذلك نفع كثير...

قلت:

ـ أما الاسم والوصف، فليسا من الصعوبة بمكان.. هذه الساعة من الدهر التي يرفرف فيها السلام على الأرض تسمى في عرف رجال السياسة توازن القوى! فكلما حدث هذا التوازن في القوى بين الدول ظفرت الدنيا بفترة من الاستقرار والهدوء والسلام.. فإذا اختل الميزان قليلاً،

ورجحت منه كفة، ثقلت بالقوة والمنعة والعدد والعلم والاختراع والحضارة فسرعان ما تبرق عيون الأطماع، وترعد أصوات الطغيان، ويكفهر الجو بغيوم الحروب التي لا تلبث أن تنقض على الأرض.. وهذه الساعة من الدهر التي تكتمل فيها الصحة ويصفو المزاج تسمى في عرف الأطباء: توازن القوى أيضاً... فكلما تم هذا التوازن بين ما في الجسم من عناصر وجراثيم استمتع الإنسان بفترة من الصحة، فإذا اختل هذا التوازن بتغلب عنصر من العناصر على غيره، أو ازدادت كميته عما ينبغي أو قلت عما ينبغي، أو تكاثرت الجراثيم، أو ندرت، فسرعان ما تذهب الصحة ويأتي المرض.. فتوازن القوى في جسم الإنسان.. أو جسم الدولة.. أو في جسم الدنيا المكون من دول هو سر الصحة والسلام.. وليست الصعوبة في معرفة ذلك السر.. فهو معروف.. ولكن الصعوبة الكبرى في كيفية الاحتفاظ بهذا التوازن طويلاً! أما في جسم الإنسان فطريقة الاحتفاظ بالتوازن ربما كانت في "الاعتدال".. وأما في الجسم الدولي فربما كانت في "اعتدال" الساسة أيضاً.. ولكن هذا الدواء المسمى "الاعتدال" أين يصنع أو يطلب؟..

قالت العصا:

ـ الاعتدال... ما من صيدلية آدمية تستطيع أن تصنع هذا الدواء العجيب في كل الأحوال!..

دورة الزمان

قالت العصا:

ـ كلما تذكرنا الحضارات القديمة التي ازدهرت في مصر واليونان والهند منذ آلاف السنين، وما خلفته اليوم في هذه البلاد بالذات من شعوب فقيرة تستجدي غيرها ثمرات الحضارة، تملكنا العجب، ولم ندر لهذا المصير المؤلم من سبب!..

قلت:

ـ السبب واضح.. حسبنا أن ننظر إلى ثروة رجل قضى عمره يكنز المال، حتى قنطر منه ما يضاهي التلال. هذه الثروة منذ وجدت، وناموس الوجود يرتب لها طريقة فنائها.

إن التلال تختفي بالتضاريس الأرضية والزلازل الفجائية، وأموال البخيل تختفي بإسراف خلفه السفيه، والثمرة الناضجة إن لم تجد من يقتطفها، تنخر فيها الدودة التي تسقطها، والصحة عندما تبلغ أوجها تولد من توهجها العلة. والحضارة عندما تتألق أشعتها تبدأ في التحلل. ولا يبقى منها بعد تمام التحلل سوى كيان منطفئ، لا يلبث أن يتحول إلى رماد، من شعوب مفككة رخوة شاحبة، ويدور الزمان دورته فينفخ قليلاً في هذا الرماد فإذا جذوة مختفية كحبة الخردل تدب فيها الروح، وتأخذ في التألق شيئاً فشيئاً حتى تصبح مرة أخرى حضارة حية ذات أشعة... وهكذا دواليك...

قالت العصا:

ـ ولكن العجيب في الحضارات أنها لا تختفي بل تنتقل. إن حضارة مصر والهند واليونان قد ورثها غير أهلها، وانتقلت من مهدها إلى أوربا مرتدية ثياباً جديدة!

قلت:

ـ ومن قال إن ثروة الغني تختفي؟. إنها تتبدد وتنتقل إلى أيد كثيرة مختلفة... وقد تعود يوماً مرة أخرى إلى أحد من أعقابه وسلالته بجهد آخر وكد جديد!..

قالت العصا:

ـ حقاً: ما من أحد يملك شيئاً على هذه الأرض إلا إلى أجل معلوم!..

مقبرة النجاح

قالت العصا:

ـ مقبرة النجاح الغرور... هذا لا شك فيه.. ولنا في ذلك أدلة وشواهد من التاريخ والواقع. وليس هنا موضع النظر.. إنما المحير هو كيف ينزلق إلى هذه المقبرة رجل في اكتمال عقله وقوته أو دولة في اكتمال قوتها وحنكتها؟!

قلت:

ـ إن الغرور بالنسبة إلى العظيم في الأفراد والدول، ليس في كل الأحوال مسألة خلقية.. بل هو أقرب إلى أن يكون مسألة حسابية.. الخطأ فيها يؤدي بالنجاح إلى المقبرة، مشيعاً صاحبه بهذا الوصف!.. فعندما يقول بعضهم إن "هتلر" مثلاً أصابه الغرور فأقدم على منازلة الدول الكبرى مجتمعة

بجيشه وحده لا يقصد بذلك مطلقاً أن مثل "هتلر" في مثل أمته المملوءة بالخبراء المحنكين، والدهاة الأساطين، يمكن أن يلعب برأسه نوع الغرور الذي نطلقه على السخفاء والمتهورين.. لا.. وإنما الغرور هنا هو حساب مبني على تقدير غير دقيق لقوة النفس منسوبة إلى قوة الغير، وقد تكون ظروف مفاجئة هي التي أخلت بهذا التقدير، ولكن هذا لا يؤثر في الوصف.. لأن الوصف إنما يلحق بالنتيجة لا بالفعل.. كما أن وصف الميت لا يلحق إلا بمن دخل المقبرة بالفعل.. ذلك أن التقدير الذي يؤدي إلى النجاح، ولو بالمصادفة الحسنة، قد يوصف صاحبه بالجرأة ولكنه لن يوصَف بالغرور.. إن الحساب إذا صدق قال الناس في صاحبه أنه أحكم، وإذا اختل قالوا فيه إنه أغتر..

قالت العصا:

ـ حقاً... ما لحقت هذه الكلمة قط رجلاً وصل! إنما الغرور وهو الكفن، الذي تغلف به قفزة الجريء إذا سقط!..

منشآت العمال

قالت العصا:

ـ هل ارتفاع الأجور يكفي وحده لرفع مستوى المعيشة بين طبقة العمال؟

قلت:

ـ لا أظن. والدليل أن أجر العامل اليوم قد ارتفع في مصر عما كان عليه من قبل، ولكن مستوى معيشته لم يرتفع بهذه النسبة، لأن عدداً كبيراً من العمال لا ينفق أجره فيما يرفع مستواه الاجتماعي، ولكن فيما يرضي نزواته العارضة. روى لي أحدهم أنه شاهد في أحد المقاهي عاملاً ينفق في جلسة واحدة ما يقرب من نصف الجنيه بين شراب

ودخان. فلما استعلم عن أمره من خادم المقهى أخبره أن هذا متوسط ما ينفعه هذا العامل في هذا المحل كل يوم، ثم علق على ذلك قليلاً: "ولعله لا يطعم أسرته بأكثر من عشرة قروش!". وهذا في الغالب هو الحاصل. لم تزل أسرة العامل وسكنها وطعامها على الحال القديم بينما زيادة الأجر تذهب في الملاهي والمكيفات. ومهما يرتفع الأجر، فلن يغير ذلك شيئاً من الأمر، والعدد القليل من العمال الذي ينفق قرشه فيما ينبغي أن ينفق فيه لا يمكن أن يظهر أثره بين الغالبية الساحقة. والحل لهذه المشكلة هو أن تنشأ مصلحة أو وزارة باسم "منشآت العمال" تقوم باستقطاع جزء من أجر كل عامل، وتجعل حصيلته في صندوق خاص، تغذيه الحكومة وأصحاب العمل بمبلغ كاف ويوجه هذا المال إلى إنشاء المشروعات التي ترفع مستوى العمال مباشرة، كبناء المساكن الصحية، والحوانيت التعاونية والأحياء والنوادي العمالية إلخ...

قالت العصا:

ـ حقاً.. هذا ما يجب أن يحدث فإننا إذا أعطينا طفلاً مبلغاً كبيراً من المال، فإن أول ما يصنعه هو أن يشتري به

كمية كبيرة من الحلوى، وآخر ما يفكر فيه هو شراء ثوب نافع.. فلا بد من تدخلنا لنوجهه إلى الطريق المستقيم، ونقول له: هذا فقط للحلوى، والباقي لمطالبك الضرورية النافعة، التي تجعل منك مواطناً محترماً...

أحلام العظماء

قالت العصا:

ـ هذا الهرم الأكبر.. الشامخ الثابت في الرمال، تمر به القرون والحقب والأجيال، كما تمر النسمات، يقول للزمن: "نحن صنوان".. ويقول له الزمن متملقاً: "بل أنت لي رداء منظور من حجر"!.. قبل أن يقام في الحقيقة على صوته هذه، ألم يقم في رأس رجل؟!

قلت:

ـ ما من شك في أنه قام في رأس رجل حلماً من الأحلام قبل أن يصير حقيقة من الحقائق. فليكن هذا الرجل ملكاً أو فناناً أو مهندساً، فإنه قد تخيل فخلق، وخلق ففرض

خليقته على الزمان!.. ساعة حلم في رأس رجل قد تصبح هي الأبد!.. يا لعجائب العبقرية أحياناً!.. هذا الوهم الشفاف الذي لا جسم له، هذا الحلم الهفاف الذي لا كيان له، هذا الخيال العابر الذي يأنف المكان أن يجد له موضعاً، ويترفع الزمان عن أن يبقى له في حسابه لحظة، يستطيع أن ينقلب جبلاً شاهقاً راسخ الموضع دائم اللحظات، ومثل هذا كثير في عالم الروائع الباقية والأفكار الخالدة..

رجل يتوهم أو يتخيل أو يحلم، ثم يستيقظ في الصباح مؤمناً بوهمه أو خياله، أو حلمه، فيأبى إلا أن يقيمه على قدمين، فما يكاد يفعل حتى ينطلق هذا الوهم أو الحلم يسعى بين الناس حقيقة، يعيش فيها الناس ويألفونها، كما يألفون الظواهر الطبيعية، من جبال وبحيرات وبحار ومحيطات. وتتشرب نفوسهم بها، فإذا هي عندهم شيء طبيعي كالماء والهواء، يتعذر عليهم الحرمان من وجودها، ويصعب عليهم تصور وجودهم بدونها، ويخيل إليهم أنها من المقومات الضرورية لحياتهم ولا يحبون أبداً أن يتذكروا أنها حلم مر ذات ليلة برأس رجل، كغيره من آلاف الأحلام التي تمر دائماً برؤوس الآلاف من الرجال...

قالت العصا:

ـ نعم.. إلا رأس الرجل العظيم.. الرجل العظيم ذلك الذي يجعل من أحلامه حقائق تعيشها الناس!..

مهر الفن

قالت العصا:

ـ ما حقيقة العلامة بين المال والفن وبماذا نفسر تصرّف فنان عظيم مثل "بيتهوفن" معروف بالخلق الكريم هذا التصرف الغريب إزاء تعهداته، فقد قيل إنه اتفق مع دار للنشر الموسيقي على تأليف "السيمفونية التاسعة" لقاء مبلغ من المال، فلما مضى في تأليفها ورأى اتساع نطاقها استصغر المبلغ المتفق عليه وتعاقد مع دار أخرى بمبلغ أكبر ضارباً بعقده الأول عرض الحائط. ثم بماذا نفسر تصرف شاعر عظيم مثل "المتنبي" الذي انتقل من مدح "سيف الدولة" إلى مدح "كافور" تبعاً لما طمع فيه من جائزة؟! أكان المال هو الهدف الأول عند هذين الفنانين العظيمين؟!

قلت:

ـ لا أعتقد مطلقاً أن المال كان هدفهما الأول.. ولا يمكن أن أعتقد لحظة أن المال وحده يمكن أن يكون الهدف الأول لفنان حق.. إن "الكرامة" الفنية هي سر تصرف بيتهوفن والمتنبي.. احترام الفنان لعمله هو الذي جعل بيتهوفن يقدر جهده أعلى تقدير، وجعل المتنبي يرى شعره وفنه خليقين بأسمى جوائز الملوك. كرامة الفن في نظر الفنان تدفعه إلى أن يصر على طلب أبهظ الأجور.. إنه نوع من الاعتداد بالنفس والاعتزاز بالفن.. لا دخل له بحب المال في ذاته.. أما الفنان الذي يسعى إلى المال في ذاته.. فإنه يسلك طريقاً آخر.. هو الطريق المعروف لجمع المال.. وهو البحث عما يرضى غرائز الجماهير.. ووضع عمله في قالب المشروع التجاري.. واستغلاله للجهود الأخرى في صيغة من الصيغ المألوفة عند الشركات وأرباب الأعمال..

قالت العصا:

ـ نعم.. فرق بين من يجعل فنه كالعروس يطلب لها المهر الغالي وبين من يجعل عمله كالعاهر تأتي له بالمال من أي طريق!..

استقلال الشخصية

قالت العصا:

ـ من المشكلات التي تصادف الآباء والمربين في عصرنا الحاضر مشكلة تكوين "الشخصية" في النشء.. فقد انتشرت بعض الآراء التي تقول بترك الصغار يفعلون ما يشاؤون، دون ضابط أو رابط من أوامر ونواه، حتى يشبّوا وقد تشربوا بروح الحرية، واعتادوا تحمل "المسؤولية".. فهل هذا هو الطريق المستقيم في تربية النشء تربية استقلالية؟.

قلت:

ـ ما من شك في أن "الحرية" وتحمل "المسؤولية" هما الدعامتان اللتان تقوم عليهما "الشخصية".. وإن حرمان النشء من حريته واستقلاله فيه إلى حد كبير تحطيم

لشخصيته.. غير أن بعض الآباء والمربين يرون أن هذه الحرية وهذا الاستقلال قد انقلبا عند بعض النشء إلى فوضى وعبث و"قلة أدب" ويفضلون العودة بالصغار إلى النظام والصرامة والطاعة العمياء... في الحق أن الخلاف راجع إلى سوء فهم كلمات "الحرية" و"الاستقلال" و"المسؤولية".. ذلك أن المطلوب لتكوين شخصية النشء ليس حرية العمل، بل حرية التفكير.. فليست الشخصية المستقلة البارزة القوية هي التي تفعل ما تريد... لأن فعل الإنسان لما يريد هو الفوضى، ولكن الشخصية المستقلة هي التي تفكر دائماً كما تريد لا كما يراد لها.. اليوم الذي نعلم فيه النشء كيف يقرأ ويدرس لا ليحشو رأسه، بل ليفكر برأسه، هو اليوم الذي نستطيع فيه أن نقول أننا غرسنا في روحه استقلال الشخصية.

قالت العصا:

ـ حقاً.. إن استقلال الشخصية ليس في حرية العمل بل في حرية التفكير...

دواء الغلاء

قالت العصا:

ــ لا حديث للناس اليوم إلا عن الغلاء.. هذا الداء المستعصي الذي تعبت الرؤوس وكلت الهمم في البحث عن علاجه... ألا ترى له من دواء؟!

قلت:

ـ فلنبحث أولاً عن أصل هذا المرض.. بعيداً عن نظريات العلماء والخبراء.. إنه في حقيقة الأمر لا يختلف كثيراً عن أي مرض من تلك الأمراض التي قيل فيها قديماً: "البطنة أصل الداء والحمية رأس الدواء" .. فمنها يكن من قوة الأسباب الاقتصادية أو غيرها مما يؤثر في السوق ويرفع الأسعار فإن السبب الأكبر هو في أيدينا نحن، بل في

بطوننا.. فمواد الطعام من لحم وخبز وفاكهة وأرز لن ينخفض سعرها كثيراً في أي يوم ما دمنا نريد أن نضعها على موائدنا في كل يوم.. إن شراهة المنتج والبائع إنما تتبع من شراهة المشتري والمستهلك... وإليكم تجربة تثبت ذلك بالدليل...

قوموا معشر المستهلكين بحملة واسعة النطاق، واستخدموا فيها الصحف والإذاعة وكافة طرق النشر لتحديد الأصناف وتنظيم ألوان الطعام لكل قادر وكل بيت... محذرين من أكل الفاكهة، أكثر من مرتين في الأسبوع، واللحم أكثر من ثلاث مرات، والأرز أكثر من مرتين أو ثلاث. واحملوا حملة شعواء على الإسراف والتبذير والترف في المأكل والملبس، وروجوا للقناعة والبساطة، ولا أقول للزهد والتقشف كما فعلت انجلترا منذ عامين فنجحت لا في مقاومة الغلاء فقط بل في القضاء على أزمتها المالية... افعلوا ذلك بكل وسيلة وأنتم ترون العجب: إن الكروش ستختفي وينقص الترهل ومرض السكر وضغط الدم، وتنقص الأسعار وتعمر الجيوب ويطعم الفقير والغني...

قالت العصا:

ـ حقاً.. لا فائدة من علاج الغلاء قبل أن نعالج بطوننا وترفنا.. لا شيء يقتل البائع الطامع غير المشتري القانع...

مرآة الفكر

قالت العصا:

ـ من الناس من يقرأ ببطء ويجهد في القراءة كما يجهد الكاتب في الكتابة... ومنهم من يمر بعينه فوق الورق كما تمر الطائرة فوق بقعة الأرض... فأي الناس أكثر انتفاعاً بما يقرأ: البطيء أم السريع؟.

ـ ليست العبرة بالبطء والسرعة... ولكن العبرة بالحاصل من القراءة... وهذا الحاصل يضخم أو يضؤل بحسب قيمة القارئ نفسه وما اكتنز من ثقافة أو تجربة أو خبرة أو نضج في شؤون الذهن والحياة.. فالكتاب الواحد قد يتفاوت معناه بتفاوت قرائه.. كما أن المرآة الواحدة قد تختلف صورها باختلاف الناظرين فيها.. فالقارئ في حقيقة

الأمـر إنمـا يقـرأ بتجاربـه لا بعينيـه.. وهـو يغـوص في أعمـاق الكتاب على قدر ما تسمح به قوة عضـلاته الفكرية وطول خبرته الإنسانية... لهذا شتان بين ما يحصله غلام من قراءة كتاب مثل "كليلة ودمنة" وبين ما يحصله رجل.. كلاهما قد حصّل شيئاً من غير شك.. ولكن كليهما قد فهم منه بقدر فهمه للحياة.. بل إن القارئ العميق يستطيع أن يعمق أحياناً ما يبدو بسيطاً من المعاني لمن يمر بها عبوراً، ولا يخطف بصره منها غير الزبد المتطاير.

قالت العصا:

ـ ربما كان الكتاب كالمرآة حقاً.. هي تعكس صورة الوجه.. وهو يعكس صورة الفكر..

المهن الراقية

قالت العصا:

ـ من الطريف المعجب أن نرى الطبيب والمهندس والضابط والتاجر ومن في مستواهم العلمي أو الثقافي في بلاد متحضرة كانجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا وإيطاليا يحسنون الإنشاء، إذا كتبوا بلغة بلادهم، والإلقاء بها إذا خطبوا.. في حين أن هذه الطبقة بالذات من المتعلمين في بلادنا ندر فيهم من يحسن التعبير باللغة العربية السليمة إذا كتب أو خطب...

قلت:

ـ هذا حقاً ما يلاحظ مع الأسف الشديد في بلادنا اليوم.. ولم يكن الحال كذلك في الجيل السابق.. فقد

كان المتعلمون على قلة عددهم أكثر احتفالاً باللغة العربية وأشد عناية بامتلاك ناصيتها من أغلب أهل هذا الجيل... ويكفي أن نراجع أساليب القضاة في الأحكام لنجد في بعضها قطعاً قد تعد في الأدب.. ولعل السبب في ذلك هو أن الجيل الماضي كان أكثر اعتماداً على نفسه وعلى مطالعاته الخاصة في تكوين ثقافته وأداة تعبيره..

وكانت تلك المطالعات أهم وأدسم لأنها لم تقتصر على الصحف والمجلات... وهذا هو الواقع في البلاد الأخرى المتحضرة، فمن النادر هناك أن تجد متعلماً من أهل المهن الراقية يهمل تكوين فكره هذا الإهمال الملحوظ في بلادنا...

قالت العصا:

ـ لقد فهموا هناك أن المهن الراقية بغير رقي التكوين إنما تهبط في الحال إلى مستوى المهن اليدوية...

العمل الكامل

قالت العصا:

ـ هل من واجب الفنان أن ينتج فنه ولا يشغل بشيء غير إنتاجه، أو يتولى بنفسه الدعوة له والخصومة فيه؟

قلت:

ـ لقد عرف تاريخ الفن هذا وذاك... عرف شكسبير الذي كان ينتج روائعه الخالدة في صمت.. من دون أن يترك ورقة يفسر بها عمله أو يرد فيها على نقاده.. وعرف بيتهوفن الذي كان ينتج آثاره الباقية في عزلة... مكتفياً بتلك الكلمة التي قالها يوماً في نقاده ومهاجميه: "إني كالجواد الراكض لا يوقفُهُ لذع ما تجتمع على ذيله من ذباب!". كما

عرف هوجو الذي كان يخرج المسرحية وخلفها جيش من أنصاره يلتحم في معركة، لا كلامية فقط بل فعلية، مع جيش من خصومه...

وعرف فاجنر الذي أنفق من الجهد في الدعوة لموسيقاه والخصومة فيها والدفاع عنها مثل ما أنفق في إنتاجها...

قالت العصا:

ـ هذا الفرق بين الطرازين من الفنانين راجع إلى طبيعة الفنان أو إلى طبيعة العمل الفني!..

قلت:

ـ أعتقد أنه راجع إلى طبيعة العمل الفني... فشكسبير وبيتهوفن كانا يهدفان إلى كمال الفن في ذاته.. كان كفاحهما موجهاً ضد النقص وضد قصورهما.. وهذا النوع من الكفاح الداخلي لا علاقة له بالناس.. أما هوجو وفاجنر فكانا يهدفان إلى ترويج مذاهب جديدة في الأدب التمثيلي والتأليف الموسيقي.. فكان لا بد لهما من كفاح خارجي عنيف، ودعوة تشابه الدعوات السياسية تكفل للمذاهب الظهور والثبات..

قالت العصا:

ـ كل ضجة تخف بعد حين.. وكل مذهب بعد عصره ذاهب.. وكل جدل مع الريح زائل.. ولا يبقى في كل زمان غير العمل الكامل...

استعارة الأردية

قالت العصا:

ـ أكثر اللغات الأوروبية تطلق على المبرز في المسابقات الرياضية ونحوها كلمة "شامبيون".. فيقول الناس هناك: "هذا شامبيون العالم في السباحة أو القفز أو الملاكمة" إلخ.. أما نحن في لغتنا العربية فنترجم ذلك بكلمة "بطل".. فنقول: "هذا بطل العالم في التنس أو الجري أو المصارعة" إلخ.. وليس هناك شك في أن هذه الترجمة غير صحيحة ولا دقيقة ولا مقبولة.. لأن وصف "البطل" في اللغات الأوروبية له كلمته وهي بعيدة كل البعد عن كلمة "شامبيون" التي تستعمل في "المسابقات".. في حين تبقى كلمة "بطل" بقيمتها لا تطلق إلا في أحوال البطولة بمعناها الحقيقي في مجال الأخلاق

والأعمال التاريخية الكبرى... فهل عقمت اللغة العربية فلم تتسع ـ وهي الغنية ـ لتشمل هذه الأوضاع الحديثة بما يناسبها من كلمات جديدة أو منحوتة؟

قلت:

ـ حقاً إنه لعجيب أمر هذه اللغة العربية التي تجد فيها للأسد وللسيف كلمات ومترادفات، بينما يظل الكثير من أوضاع الحياة الحديثة عارياً من الوصف، فيستعار له على عجل رداء غيره... فإذا هو فضفاض...

قالت العصا:

ـ كثير من الكلمات اليوم فضفاضة على مدلولاتها، فكلمة البطل والأستاذ والعالم والأديب إلخ.. كلها تطلق جزافاً حتى فقدت كل قيمتها اللغوية... أترى العلة في الفقر الذي أدى إلى استعارة الأردية، أم في الإهمال الذي شجع المستعير على أن يستعير؟!

غاية الطبيعة

قالت العصا:

ـ يتساءل الناس منذ أقدم العصور عن غاية "الطبيعة، وينتهون أحياناً إلى أن غايتها هي المحافظة على الأنواع.. أي الاستمرار.. أي الخلود.. كما أن الفنان الخالق وهو ابن الطبيعة والمستلهم منها والخاضع لقوانينها إنما يهدف هو الآخر من وراء خلقه الفني إلى الخلود.. لذلك قيل: إن العمل للخلود هو شيمة الفنان الجاد الملهم الرفيع...

قلت:

ـ أظن أن فكرة "الخلود" بعيدة عن غاية الطبيعة، كما أنها بعيدة عن هدف الفنان الجاد.. لأن معنى الخلود متصل بمعنى الزمن.. و"الزمن" شعور إنساني بحت لا نخال

"الطبيعة" تحسب حسابه أو تفكر فيه.. كما يفعل الإنسان المحدود المدة والمكان والفكر والعمر...

إنما هي تحيا وتستمر وتتكرر وتعدل وتظهر في صور مختلفة ومتشابهة، وتتطور وتتقهقر وتردد وتعيد وتبدئ وتقفز وتبتكر وتتمهل وتتراجع وتسرع وتتقدم.. كل ذلك بدافع واحد، هو أن تحقق ذاتها.. وتحقيق الذات هذا كالدائرة المفرغة لا نهاية له ولا لتطوراته.. كذلك الفنان الحق لا يهمه كثيراً بقاء عمله بعد موته أو زواله.. فهو ليس بالثري المغرور الذي يعنى طول حياته بإقامة الضريح الذهبي العالي الذي يبقى ذكره في الناس.. إنما الفنان الحق يخلق هو الآخر بدافع تحقيق ذاته.. أي متابعة التطورات والتغيرات التي تحدثها ملكاته.. لذلك نرى كثيراً من عظماء الشعراء والفنانين فرغوا من إنتاج الآثار المشهود لها بالخلود ومع ذلك يمضون في إنتاج الألوان المتباينة بلا انقطاع... إنهم إذن في الحقيقة يلبون نداء تحقيق الذات في حالاتها المختلفة وألوانها الخضراء والصفراء كما تفعل الطبيعة، أكثر مما يشيدون الأضرحة المزوقة لخلود الذكر....

قالت العصا:

ـ يظهر أن "الخلود" هو "نتيجة" لا "غاية" عند الطبيعة والفنان...

العالم الأفضل

قالت العصا:

ـ هل الإنسان يسير حقاً نحو عالم أفضل؟.. أو أن فكرة الغد الأفضل هي السراب الضروري للإنسان كي يعيش مواصلاً السير في صحراء الحياة اللانهائية الآفاق؟!

قلت:

ـ إن كلمة "الأفضل" هي التي يجب أن نقف عندها طويلاً ونقلبها بحثاً وفصحاً... ما هو المقصود من كلمة "الأفضل"..؟.. أهو التقدم المادي؟. أهو الرقي الروحي؟. أهو الشعور بالسعادة الفردية؟! أهو الاندماج في الهناءة الاجتماعية؟. إذا كان المقصود كل هذا وأكثر منه فهل من الممكن أن يتم ذلك في الغد المأمول وحده.. أو في زمن

واحد من الأزمان؟. أو بمرحلة واحدة من مراحل الإنسان؟.. لو تأملنا حياة فرد من الأفراد لوجدناها تسير من مرحلة الطفولة إلى الشباب إلى الرجولة إلى الكهولة.. وهي في سيرها تكتسب من غير شك تقدماً وربحاً وغنماً في ميادين التجربة والمعرفة والمال والمركز.. ولكنها تخسر أيضاً في عين الوقت ــ كلما تقدمت سنة ــ في ميادين الصحة الجسمانية والنفسية والروحية.. هل يقاس صفاء النفس عند الطفل، وإيمان القلب عند الشاب بما في نفس الرجل وقلب الكهل؟! وهل تقاس سعادة الفطرة والفرحة بالحياة في الطفولة والشباب بسعادة الرجولة والكهولة؟.. هكذا الحال في البشرية أيضاً... إنها تتقدم في نواح وتتأخر في نواح.. وهي في مراحل حضارتها تكسب في أشياء وتخسر في أشياء...

قالت العصا:

ـ ما دام الإنسان يسير في صحراء حياته بالأمل فلا بد من وجود سراب "العالم الأفضل" المطلق!...

كل شيء مطلق يعيش في الخيال المطلق.. ولكن الحقيقة أن "العالم الأفضل" موزع على مراحل حياتنا الفردية والاجتماعية والبشرية.

خلود الفكر

قالت العصا:

ـ أيهما هو الذي أراد أن يخلد ذكره ويبقى أثرُهُ ويُحافَظُ على كيانه وجثمانه وسرِّهِ وعبقريته بتشييد هذا الهرم الأكبر؟ أهو خوفو؟ أم هو العلم الهندسي والإبداع الفكري؟

قلت:

ـ لقد اعتاد قصار النظر من المؤرخين أن يزعموا أن الهرم الأكبر هو وليد نزوة لأحد الفراعنة.. وهذا صحيح لو صحّ أن بقاء الأنواع هو وليد نزوات وشهوات ومتع وقتية.. وغداً سيزعم هذا النفر من المؤرخين أن اكتشاف أسرار العلوم الذرية وليد حرب سخيفة بين دول متوترة الأعصاب..

كل هذا صحيح في الظاهر ولكن المتعمق في البحث يجد العكس هو الأصح.. ويرى أن قانون بقاء النوع هو الذي يستخدم نزوة الإنسان ومتعَهُ ليحقق هدفه.. فهو السابق على النزوة، الدافع إليها.. فالتقدم العلمي الهندسي الرائع في العصر الفرعوني هو الذي أغرى خوفو.. والتقدم العلمي الذري في العصر الحاضر هو الذي يغري الدول.. فالمعرفة البشرية سواء أكانت في العلم أو الأدب أو الفن لها قانونها في البقاء والاستمرار والتقدم.. وهي تعيش وتعمل وتنمو مستخدمة لهدفها الضعف الإنساني وقوته، والخير والشر على السواء..

قالت العصا:

ـ إن المتعة تذهب بعد لحظة. ولكن النسل يبقى.. والنزوة تزول ولكن الأثر العلمي أو الأدبي أو الفني يعيش... ماذا يهمنا اليوم من نزوة خوفو ونحن أمام معجزة هندسية فنية!. حقاً... إنها المعرفة الإنسانية هي التي أرادت أن تخلد نفسها من خلال غرور الإنسان...

طابع الحضارة

قالت العصا:

ـ من الملاحظ أن الأمم الناشئة الآخذة بأسباب الحضارة تريد أول ما تريد أن يكون لها في ميدان الحضارة طابع خاص.

قلت:

ـ شأن الصبي الذي يريد أول ما يريد أن تكون له بين أهل الدار شخصية بارزة... فهو يتكلف في سبيل هذه الرغبة من المظاهر ما يظن أنه يحقق هذا الهدف... إلى أن يشب وينضج فيدرك أن الشخصية لا تكتسب بالمظاهر ولا بالرغبة ولا الإرادة... إنما هي صفة تلحق الإنسان بدون أن يسعى إليها، عندما تنشط أعماله وتنمو ملكاته وتكثر

تجاربه وتحفر يد الحياة على جبينه خطوط النجاح والإخفاق والظفر والهزيمة والقوة والضعف.. خطوطاً كلما برزت على صفحات النفس برزت معها الشخصية واضحة جلية.. كذلك الحال في الأمم.. لا بد لها من شوط كبير في الحضارة التي تأخذ بأسبابها.. تجري في ميدانها وتكبو، وتصيب وتخيب، وتغنم وتغرم، وتتمرس بكل ما يصادفها في الطريق من ظروف طيبة وخبيثة.. لتخرج من هذه الخبرة وقد دمغ جبينها بآثار المعركة.. فإذا الدنيا ترى على أديم وجهها ـ دون أن تشعر هي أو تأبه ـ طابعها الخاص.

قالت العصا:

ـ حقاً.. إن الطابع الخاص في الفن والحضارة، شيء لا يتم بالإدارة.. بل لا بد له من النضج الطبيعي...

الماضي طريق المستقبل

قالت العصا:

ـ جرت الألسنة بالقول إن الماضي في بلادنا له أثر واعتبار، وأن فرط الاهتمام به هو الذي يسد علينا مسالك التفكير في المستقبل!.

قلت:

ـ هذا رأي بعيد عن الصواب.. فنحن أقل الأمم اهتماماً بماضينا.. بل نحن لم نلتفت إلى آثار الماضي إلا بعد أن كشف لنا عن أستاره الأجانب.. ولقد تسأل المثقف منا عن أفكار وأخبار عظيم من عظمائنا مات، لا أقول منذ مائة عام بل منذ ثلاثين عاماً أو أربعين فقط، فلا تظفر منه إلا بالجهل وقلة الاكتراث.. في حين أنك لا تجد رجلاً مهماً ولا

فكرة بارزة أو فترة حافلة في حياة الأمم المتحضرة الراقية إلا وقد درست وبحثت وأبرزت.. فما يكاد عظيم هناك يموت حتى يؤرخ له المؤرخون فلا تترك من أفكاره ولا من آثاره ناحية دون أن يُكشف عنها الستار ويُلقى عليها الضوء.. هذا الاهتمام الذي يربط حلقات الماضي فترة بفترة ورجلاً برجل وفكرة بفكرة وجهداً بجهد، هو الذي يشق لهذه الأمم طريق المستقبل.. ذلك أن الخطأ الأكبر هو أن تظن أن المستقبل شيء منفصل عن الماضي.. إنما الزمن حلقات متتابعة.. ولن نجد المستقبل نامياً إلا من بذور الماضي.. وإذا كنا نحن لاهين عن مستقبلنا فذلك لأننا لاهون أيضاً عن ماضينا..

قالت العصا:

ـــ الأمم الناشئة مثل الطفل، لا تهتمُّ بماض ولا بمستقبل.. إنما هي مثله تهتم بالحاضر وحده.. الحاضر هو الزمن الوحيد الذي يغرق فيه الأطفال...

روح الإنصاف

قالت العصا:

ـ إنه لمن أصعب الأمور فيما يبدو، أن يحكم الإنسان حكماً عادلاً على تصرفات غيره!...

قلت:

ـ هذا صحيح.. ووجه الصعوبة في ذلك هو أنه ما من إنسان ـ إلا في النادر ـ يحاول أن يضع نفسه في موضع الغير بظروفه كلها أو بعضها عند الحكم على تصرفاته.. وقد يكون مرد ذلك أحياناً إلى جهل الإنسان بظروف الغير أو تجاهله لها... وقد يكون مرد ذلك إلى طبيعة الإنسان ذاته.. فمن الناس من يكون محيطاً كل الإحاطة بالظروف التي دفعت شخصاً آخر إلى تصرف من التصرفات، ولكن طبيعة

نفسه غير المنصفة تأبى أن تدرك أو تعترف أنها كانت تفعل هذا الفعل عينه أو ما يشابهه، لو أنه وضع في عين الظروف.. وهذا الرفض للإدراك أو للاعتراف إما أن يكون صادراً عن أثرة واعتداد وكبرياء تلقى على البصيرة نوعاً من الغشاء، وإما أن يكون صادراً عن ضعف في الخيال وفقر في التجارب ونقص في العلم بأسرار النفوس.. وذلك أن الحكم العادل على أعمال الغير يتطلب معرفة تامة بخبايا النفس وخبرة واسعة بخفايا الطبع وخيالاً خصباً يحملنا إلى مكان الآخرين فنعيش لحظة بالتصور والمخيلة في حياتهم بطبائعهم وظروفهم، متجردين عن الزهو الذاتي، لنحكم ونقول: هل هم معذورون؟

قالت العصا:

حقاً.. إن روح الإنصاف والعدل لا يمكن أن يحل في جسد من الكبرياء والجهل...

استقلال التفكير

قالت العصا:

ـ هل هناك علامة تدلنا على أن شخصاً من الأشخاص قد وصل إلى مرحلة الاستقلال في التفكير...

قلت:

ـ نعم.. هناك علامة بسيطة: هي أن نرى الشخص يعرف منبع تفكيره، وأن يعترف بأثر غيره في هذا التفكير.. هكذا نرى غاندي يقر دائماً أنه مدين بفلسفته إلى تولستوي.. ونرى محمد عبده يقول إن أستاذه في تفكيره هو جمال الدين الأفغاني.. وأرسطو لا يفتأ يكرر أنه تلميذ أفلاطون حتى فيما ابتكره هو من مذاهب... وغوته يعلن تأثره الشديد بتفكير فولتير إلخ.. هذه المعرفة وهذا

الاعتراف هما دليل الشخصية الفكرية التي تشعر بأنها استقلت بالفعل، وأنها بلغت في استقلالها الحد الذي ترى معه جذورها، ولا يضيرها أن تذكرها وتتيه بها.. على عكس ذاك الشخص المبتدئ أو الشاب في مطلع تفكيره فإنه لا يستطيع أن يرى المنبع الموحي إليه، وإذا استطاع فإنه يخفيه في الحال عن نفسه وعن الآخرين، مؤكداً أنه ما تأثر قط بأحد. وهو يظل على هذا الجهل أو التجاهل، مخفياً رأسه كالنعامة في الرمل إلى أن يصلب عوده وينضج تفكيره وتتلون ثماره، فلا يجد عندئذ بأساً من أن يذكر جذوره....

قالت العصا:

ـ حقاً.. أن الاستقلال في الفكر لا يبدأ إلا عندما تعرف وتعترف أن تفكيرك كان بذرة في ثمرة الغير!

الروح السلبية

قالت العصا:

ـ يظهر أن هناك شعوباً إيجابية وشعوباً سلبية.. فشعوب الطراز الأول تواجه كل شيء بروح العمل والبناء والإنشاء.. وشعوب الطراز الثاني تواجه كل شيء بروح الكسل والهدم واللوم..

قلت:

ـ هذا صحيح.. وآية ذلك ما نراه أحياناً في بلادنا من شيوع هذه الروح السلبية.. فما أكثر ما نسمع ونقرأ ونتحدث عن تقصيرنا في كذا وعدم استطاعتنا لكذا، وتقليدنا لكذا.. وعجزنا عن كذا وفقرنا في كذا.. ولكن قلا نعثر بيننا على من يتوفر بإخلاص وجهد واجتهاد على ما وصلنا

إليه بالفعل وما حققناه في الواقع فيدرسه دراسة دقيقة، وينظمه ويصفيه ويقومه ويبرزه حتى يكون أساساً لطبقات أخرى منتظرة أو درجات أخرى منشودة.. هذه الروح الإيجابية البنائية يندر أن نراها في بلادنا الآن.. بل لقد بلغ من تمكن الروح السلبية فينا أننا نرى بيننا من إذا أراد أن يشيد بعمل أو شخص لم يجد طريقة يعبر بها عن غرضه غير أن ينتقص من قدر عمل آخر أو شخص آخر.. فهو لكي يضع حجراً لا بد من أن يسقط حجراً.. ولهذا لا يمكن أن يقوم بناء أو يتم إنشاء..

قالت العصا:

ـ إن الشعوب في مبدأ تطورها كالأطفال في مطلع تكوينهم.. تتغلب عليها الروح السلبية، فمن السهل على الطفل، الذي يريد مباشرة نشاطه والاستجابة إلى داعي حيويته، أن يحقق ذلك بأن يقذف نافذة بحجر.. ولكنه عندما يكبر ويقوى وينضج يرى الوسيلة في تحقيق نشاطه هي أن يرسي ذلك الحجر أساساً لبناء..

وحدة الفكر

قالت العصا:

ـ هل يتحد الناس جميعاً في مستوى الثقافة والفكر في يوم من الأيام؟..

قلت:

ـ لو استطعنا أن نتخيل عالماً مثالياً يسود الأرض في يوم من الأيام، تُحَلّ فيه المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والتعليمية التي تفرق بين الناس، وتجعل منهم الغني والفقير، والحاكم والمحكوم والعالم والجاهل.. عالماً مثالياً قد أصبح الناس فيه متساوين في الثروة والسلطة والمعرفة.. لو استطعنا أن نتصور إمكان ذلك فإن الذي لا نستطيع أن نتصور إمكان حدوثه هو أن يتحد الناس جميعاً في درجة

واحدة من درجات الثقافة والفكر... فالتعليم الموحد لا يولد الفكر الموحد ولا الثقافة الموحدة... لأن الفكر وليد الطاقة الذهنية التي تختلف باختلاف القوة العقلية في الأفراد.. والثقافة وليدة ملكات إحساسية تختلف باختلاف الطبع والعاطفة والميل الطبيعي في كل إنسان.. فهذا الاتحاد في المستوى الثقافي والفكري لا يمكن أن يتم إلا إذا سبقه تشابه تام وتطابق كامل في درجات القوى العقلية والشعورية.. ولا يبدو حتى الآن ما يدل على أن الطبيعة تنوي إجراء هذا التعديل في خلق الإنسان...

قالت العصا:

ـ بل إنه لمن العسير أن نجد ـ حتى في طبقة المتحدين في الفكر والثقافة ـ اتحاداً تاماً في الحكم على فكرة من الأفكار أو في الميل إلى أثر من الآثار.. وإذا اتحدوا في الحكم والميل فقلما يتحدون تماماً في الزوايا التي منها نظروا وشعروا.. لعل خطوط العقول أو القلوب مختلفة في الناس كاختلاف الخطوط في بصمات الأصابع.

عصر الغابة

قالت العصا:

يبدو أن الكرة الأرضية تدور اليوم بسرعة حول محور عجيب.. محور قطباه لا يسميان الآن القطب الشمالي والقطب الجنوبي.. بل اسمهما النجاح والإخفاق.. كل دولة وكل فرد ينجذب إلى هذا المغناطيس المسمى "النجاح".. جاعلاً منه إيمانه ودستوره.. فهو يطلبه بأي ثمن دون نظر لأي اعتبار.. وهو يتجنب الإخفاق ولو كان معه الشرف ومبادئ الأخلاق..

قلت:

ـ أظن أن طلب النجاح ليس بالأمر الجديد على الشعوب والأفراد.. ولكن الحق أنه كان فيما مضى مقيداً بحدود..

حدود من المبادئ.. كانت الدولة تسعى إلى الفوز في الحروب ولكن شيئاً من المبادئ كان يمنعها من استخدام أي سلاح.. وكان الناس يسعون إلى النجاح في الحياة، ولكن السلوك القويم والذوق السليم ومبادئ الأخلاق والفضائل والمثل العليا كانت تخجلهم وتصدهم عن طلب النجاح من أي طريق.. كان طلب الفوز والنجاح موجوداً ولكن كان هناك تخير مفروض بالعرف في السلاح والأسلوب.. أما اليوم فإن جموح الدول الجنوني، وانطلاقها إلى الحرب المبيدة بكل سلاح وحشى دون وازع من ضمير أو رادع من مبدأ إنساني، قد أُوحي إلى الناس أن ينطلقوا هم الآخرون إلى النجاح في الحياة بكل الوسائل، من دون خجل أو حياء أو زاجر من شرف أو خلق...

قالت العصا:

ـ عصرنا اليوم لا يعرف غير شيئين، دولة منتصرة ودولة منهزمة ورجل ناجح ورجل فاشل، والباقي لا يهم... إنه عود إلى عصر الغابة..

حلقات العمر

قالت العصا:

ـ صدق من شبه حياة الإنسان بالنهر.. فهي تجري حقاً في أمكنة متعددة وأجواء مختلفة، لتصب آخر الأمر في محيط اللانهاية..

قلت:

ـ بل أن أعجب ما في حياة الإنسان أنها ليست حياة واحدة، إنها سلسلة حيوات تتتابع في حلقات العمر الطويل.. فحلقة الطفولة لها حياتها المستقلة بجوها السحري واتجاهها الملائكي.. وحلقة الصبا والشباب لها حياتها المستقلة بجوها الشعري واتجاهها المثالي.. وحلقة الرجولة لها حياتها المستقلة بجوها التأملي واتجاهها الواقعي.. وحلقة الكهولة

والشيخوخة لها حياتها المستقلة باتجاهها الفلسفي.. وهلم جرا.. وهذه الحلقات منفصلة في أكثر الأحيان إحداها عن الأخرى، انفصالاً ملحوظاً.. فإن ما كنت تعيشه في حلقة لا يصلح لك في حلقة أخرى.. فالجمال الذي كان يفتنك في الشباب لا يؤثر فيك وأنت في الرجولة، والكتاب الذي كان يثقل عليك في الصبا قد يسحرك في الكهولة..

قالت العصا:

ـ من هنا جاء تصادم الأجيال.. فكل جيل يحكم على غيره بمقاييس الحلقة التي هو فيها.. دون أن يفطن إلى اختلاف الجو عند الآخر.. فمن يعيش في حرارة الشباب يظن كل شيء حاراً.. ومن يعيش في برودة الشيخوخة يظن كل شيء بارداً.. ولو أنصف الجميع لاعترفوا بأن الحياة مناطق وأجواء..

عمر الشجرة

قالت العصا:

ـ نسمع في بلادنا من حين إلى حين بعض المنتقدين يحملون على نظامنا الاجتماعي ونشاطنا العلمي والأدبي والفني بقولهم: "انظروا إلى المجتمع في أوربا تجدوا الرقى والتقدم، أما هنا فإنكم تجدون الجهل والتخلف.. وانظروا إلى علمائهم وأدبائهم وفنانيهم تجدوا المحصول الوافر والإنتاج الناضج، أما عندنا فإنكم تجدون الأثر الهزيل والثمر الضئيل...". هل معنى ذلك أننا من طينة أخرى غير طينة الأوربيين... وأنه قد كتب لهم الفوز وكتب علينا العجز؟!

قلت:

ـ شأن هذا الطراز من المنتقدين شأن من يمر بشجرة تفاح عمرها عشرة أعوام، قد تمكنت جذورها من الأرض، فكثر إنتاجها ونضج ثمرها فيعجب بمنظرها ثم يبصر إلى جوارها شجرة تفاح أخرى عمرها عامان فقط، لم تمتد بعد جذورها في الأرض فهزل محصولها وضؤل ثمرها.. فيثقف منها موقف الساخر قائلا: "انظروا.. أين هذه من تلك؟..". إلى أن يمر به من يسخر بحكمه الساذج لافتاً نظره إلى أهمية العمر والسن والزمن!.. قائلاً له: "أعط هذه من الوقت ما أعطى لتلك ثم احكم!..".. قبل أن نحكم على مجتمعنا الحديث يجب أن نسأل عن عمر دعائمه بالنسبة إلى أعمار ذلك في نظائره.. وقبل أن نعيب علمنا أو أدبنا أو فننا الحديث يجب أن نبحث متعمقين متى وضعت بالضبط أسسه الجديدة؟ ومتى بدأت أسس النهضات للعلوم والآداب والفنون في أمم أوروبا؟!..

قالت العصا:

ـ لا يظهر الحكم المتزن إلا عندما تظهر تباشير النضج!..

الحلم الحي

قالت العصا:

ـ يظهر أنه لا جهد يضيع عبثاً في هذا الوجود.. حتى جهد أولئك الذين أضاعوا حياتهم في الأحلام..

قلت:

ـ هذا صحيح .. حتى جهد ذلك الرجل الذي هام على وجهه في الصحراء، يناجي شبح محبوبته بشعر يتفجر من خياله المحموم.. لطالما قال في مثله أهل زمانه: "ذاك رجل ضائع!.." ولا جدال في أن مثل هذا الرجل الحالم قد ضاع بين حقائق زمنه.. ولكن زمانه مضى بوقائعه وحقائقه ورجاله وأهله... وإذا الرجل الحالم بخيالاته وشعره وأحلامه يصبح حقيقة ثابتة في زمن آخر وعصر آخر.. ويعيش في مجتمعات

مختلفة متعاقبة باسم "امرئ القيس" أو "عمر بن أبي ربيعة" أو "شيلي" أو "بيرون".. أن الفرق بين الحلم والواقع هو فرق في الوقت.. كالفرق بين الليل والنهار... وكثيرون ممن يعيشون في الواقع، يطويهم الظلام إذا أقبل.. وكثيرون ممن طوتهم الأحلام، يتحقق حلمهم إذا طلع النهار..

قالت العصا:

ـ لعل الناس في ذلك ينقسمون إلى فئتين: فئة تعيش مع حاضرها وتندمج فيه وترضع لبانه وتعتصر ثمراته، وتلتصق به التصاقاً شديداً في خيره وشره، فإذا ذهب ذهبت معه.. وفئة تخاصم حاضرها ويخاصمها، فلا تندمج فيه كل الاندماج ولا تلتصق به كل الالتصاق، فإذا ذهب لم تذهب معه.. وبقيت إلى زمن آخر وعصر آخر..

الجزء الثاني
في الآخرة

الاتصال بالعالم الآخر

قالت لي العصا، وقد رأت في يدي صحيفة:

ـ ماذا تقرأ هكذا باهتمام؟..

قلت:

ـ اقرأ خبراً عجيباً.. اسمعي:

"جاء أخيراً في إحدى البرقيات أن "جو وليمسون" مؤسس جمعية الدراسات لما وراء الطبيعة ورئيسها السابق قد صرح قائلاً: أنه سيأتي في القريب ذلك اليوم الذي يستطيع فيه الإنسان أن يرفع سماعة تليفون روحي، ويضغط على زر جهاز، ليخاطب الموتى في عالم الأرواح، وأن التجارب الأولى

لو نجحت، فلن تكون هناك أسباب تحول دون اقتناء كل شخص لآلة تليفونية روحية، لا تكلفه ثمناً باهظاً.."

قالت العصا:

ـ هذا اختراع عجيب حقاً.. تصور هذا الجهاز في متناول يدنا الساعة، فمن نطلب من أهل العالم الآخر؟

قلت:

ـ أترك الأمر لاختيارك أنت

قالت العصا:

ـ اتفقنا.. سأتخيل الآن الجهاز أمامي.. وسأطلب روح من يخطر على بالي.. ولك إذا شئت أن توجه الأسئلة وتتلقى الأجوبة..

مع حواء

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت حواء.. فسمع صوت آت من بعيد:

ـ أنا حواء... من يطلبني؟..

ـ هنا الدنيا!.. نهارك سعيد!.

ـ نهاري سعيد؟ أي نهار تعني يا هذا؟ وما معنى النهار؟..

ـ عفواً.. نسيت أنه لا يوجد عندكم نهار ولا ليل!.. بماذا أحييك إذن يا أم البشر؟.. كيف يسلّم بعضكم على بعض في الآخرة؟..

ـ لا حاجة بنا إلى ذلك.. ماذا تريد مني؟.. لا تضيع الوقت في التافه من الكلام..

ـ هل آدم معك؟.. ليكن في علمك أني طلبت محادثتك على انفراد؟..

ـ اطمئن.. أنه اعتاد من زمن طويل.. منذ كنا على الأرض أن يسد أذنيه عن محادثاتي الخاصة...

ـ وهل كانت لك محادثات خاصة على الأرض؟

ـ طبعاً!.. وحتى قبل أن نهبط إلى الأرض، ألم أحادث الحية طويلاً.. لقد كان آدم يرى كل شيء ويتظاهر بالصمم.. وعندما أخبرته بجمال شجرة التفاح سمى عملي إغراء.. وعندما سُئل عن حديثي مع الحية قال إنه لا يستطيع منع امرأة من الحديث والثرثرة

ـ حقا.. أنه يلقي عليك أنتِ كل التبعة في إخراجه من الجنة..

ـ ولو علمت كيف سمم حياتي بعد ذلك طول وجودنا على الأرض!.. إنه لا يريد أن يفهم أنه شريكي في كل ما فعلنا ونفعل.. ولكني في نظره مخلوق وجد ليلقي عليه مصائبه وكوارثه، وعواقب ضعفه ونزواته.. يا لقسوته! إنه لا يريد حتى أن يعتبرني ضلعاً من أضلاعه!. كلا!.. إن له ساقين تحملان جسمه، فلا بد من ثالثة تحمل ذنبه ووزره!..

أنا هذه الساق

ـ لو عرفت كيف تكلف هذه الساق رجال اليوم؟! إنها تغلف في جوارب من "النايلون" باهظة الثمن!.

ـ ما هذا "النايلون"؟.. أهو نوع من ورق التوت ؟!.

ـ لا يا جدتي.. إنه نوع من ...

ـ رجائي إليك ألا تناديني بجدتك!.. لست أدري لماذا كان يثقل على أذني هذا اللفظ؟ ثم إنك لا يمكن أن تتصور مقدار ما كنت عليه من حسن!.. ثق بأني لم أنجب ابنة قط في مثل جمالي!.. ومهما يكن في آدم من عيوب، فإن له فضيلة لا تنكر، وهي خضوعه لحسني، وافتتانه بجسمي، وإذعانه لرغباتي، وتنفيذه لطلباتي.. ولو كنت أمرته أن يحضر لي هذا الذي يغلف الساق... ماذا قلت عنه؟.

ـ جوارب النايلون!..

ـ نعم.. حدثني عن هذا النايلون..

ـ وما فائدة ذلك الآن.. ما دام آدم لا يستطيع أن يحضره لك في العالم الآخر؟

ـ صدقت.. إنه لا يحضر لي شيئاً.. لقد شاخ وهرم.. أقصد عندما كان في الأرض، لقد كانت الحياة معه لا

تطاق.. لقد كثر سعاله وضاق خلقه وثقل ظله.. ولكن أين المفر لمسكينة مثلي!.. لو أن في ذلك العهد آدمين على الأقل!.. ولكنه هو دائماً أمامي آدم واحد بوجهه المقطب المجعد، وحديثه الممل الذي لا يتغير.

ـ لا تحزني!. مشكلتك كانت هينة، إلى جانب مشاكل المرأة في العصر الحديث... أخبريني: ما رأيك في موضوع منح المرأة حق الانتخاب؟..

ـ انتخاب من؟ زوجها؟.. أهذا ممكن؟. أني لأغبط تلك المرأة التي تستطيع أن تنتخب زوجها وتختار رجلها؟.. حسرة علّي!.. لم يكن لي حق انتخاب ولا اختيار، كان رجلاً واحداً فكان على كل حال خيراً من لاشيء وكان حتماً على الرضا به والسكوت.

ـ لا.. لست أقصد حق اختيار الزوج.. فهذا في يد المرأة اليوم، ولكني أقصد حقها في أن تحكم وتسوس وتقود..

ـ ومن قال لك إني لم أحكم ولم أسس ولم أقد؟.

من الذي قاد آدم من يده وأخرجه إلى الأرض؟ لا تصدق امرأة تزعم غير ذلك.. لكل امرأة تفاحتها التي تقود بها الرجل!..

ـ قلت ذلك فلم يصدقوني.. لأننا في عصر نصدق فيه النظريات ولا نصدق الحقائق.. فإذا شاع مذهب يقول إن المرأة ضعيفة، فيجب أن نصدقه حتى ولو رأيناها بأعيننا تمسك بيدها رجلاً وتلقي به من حالق.

ـ من ذا الذي يسميني ضعيفة؟ يبدو لي أني منذ عشت على الأرض حتى اليوم، وأنتم تعيشون في غلطة تغذيها دائماً بلاهتكم معشر الرجال!.. وهي أن المرأة ضعيفة.. ما من امرأة ضعيفة.. إنها تتظاهر بالضعف، كما يتظاهر الرجل بالقوة!..

ـ ماذا تقولين في كثير من رجال اليوم الذين يسمونها كذلك ليقال عنهم إنهم مجددون!..

ـ لهؤلاء تستطيع أن تنقل عني هذه الضحكة الصغيرة سخرية بهم!..

ـ عجباً!.. يا لها من ضحكة ما كنت أظنها معروفة في عهدك!..

ـ من كنت تظنني إذن يا هذا؟ يا لك من ساذج! صدق ما توقعت منك وتوسمت فيك!.. أو كان آدم يستطيع أن ينجب غير بسطاء من أشباهه!..

مع هتلر

ضغطت العصا على زر الجهاز، وطلبت هتلر.. فسمع صوت يجيب:

ـ أنا هتلر..

ـ أخبرنا هل أنت مت حقاً؟ أو أنك حي مختبئ في مكان ما؟..

ـ إني حي مختبئ..

ـ أين؟.. أين؟..

ـ في قلب كل ألماني على وجه الأرض..

ـ جثة من التي وجدت في قبو دار المستشارية ببرلين؟

ـ جثتي.

ـ هل انتحرت؟ أو قتلت؟

ـ وماذا يهم ذلك؟.. كل ما أردت هو أن أترك لأعدائي جيفتي.. أما الروح فهي التي لن يأخذوها أبداً.. وهي على الرغم منهم باقية أبداً، وهي عندما خرجت من جثماني، دخلت فكرة في نفس كل ألماني.

ـ هل تشعر الآن وأنت في عالم الصفاء بأنك مجرم؟

ـ نعم إني مجرم.. فقد أخلصت لبلادي حتى الموت.. وهذه في نظر الإنجليز أكبر جريمة يقترفها رجل غير إنجليزي! لأنه ليس مسموحاً لأحد أن يتفانى في حب بلاده غير الإنجليز!

ـ ألم يبلغك ما قاله عنك تشرشل.. إنك كنت تحب شخصك أكثر من حبك لبلادك وأنك جمعت أنت وأعوانك في المصارف أموالاً تقدر بالملايين؟

ـ لقد عثروا على جثتي، وكان أيسر من ذلك أن يعثروا على شلن واحد من هذه الملايين المكدسة في المصارف.. ولكنك لا تعرف تشرشل..

ـ أعرف أنه هو الذي قادك إلى الهزيمة..

ـ هل تظن ذلك؟.. أن الذي أعرفه هو أن ستالين قاد الجيوش وروزفلت قام بالتموين، أما تشرشل فكان البهلوان الذي يصيح ويثرثر ويقفز من ميدان إلى ميدان رافعاً إبهامه في الهواء!

ـ إنه كان يلعب دور النبي الديموقراطي بطل ميثاق الأطلنطي!

ـ وماذا حدث لهذا الميثاق؟.. تبخر في الفضاء.. أليس كذلك؟ قلت لك أنت لا تعرف تشرشل! هل رأيت على الأقل دخانه؟!

ـ تقصد دخان سيجاره؟

ـ ها أنت ذا تسميه سيجاراً؟ كلا.. إن تشرشل ليس سوى مصنع أكاذيب متحرك.. وهذا الذي في فمه دائماً مدخنة المصنع!..

ـ حقاً.. لقد صدر إلينا من بضاعة مصنعه مالا ننسى.. وموقفه منا في إعلان الجلاء، وفي ديوان الأسترليني لأكبر دليل على أنه يكذب علينا بالسهولة التي ينفث بها الدخان من مدخنته!..

ـ لقد امتد دخانه حتى إلى حياتي الخاصة.. لن أنسى أنهم تحدثوا بما لا يليق عن إيفا..

ـ إيفا براون؟..

ـ نعم.. زوجتي المخلصة.. المخلصة حتى الممات إنها الآن معي هنا، وهذا كل عزائي..

ـ لماذا لم تجلس زوجتك بجوارك على عرش مجدك في الدنيا؟ ولِمَ لم تجعْلها تحتل مكان السيدة الأولى في المجتمع الألماني؟.

ـ عبثاً حاولت ذلك معها.. ولكنها هي التي رفضت وأرادت لنفسها هذا الانزواء عن المجد والمجتمع والناس.. لأنها لم تشأ أن تستخدم صلتي بها لمصلحتها الشخصية، ولا أن تستغل علاقتها بي للظهور.. لقد كانت أنبل من ذلك نفساً وأرفع شعوراً وأصدق عاطفة، وأعمق إخلاصاً، وقد فهمت أن رسالتها هي أن تكون بجانبي في ساعات الضعف والوحدة والوحشة المظلمة لا أن تتألق للناس في ساعات المرح وساحات النصر وحلبات الرقص!.

ـ كيف ماتت؟.. ومتى؟.. قبلك أو بعدك؟..

ـ لقد أصرت على أن تموت قبلي بدقائق.. وقد سمعت ذلك مكرمة تطمع فيها مني.. أن آذن لها بذلك.. لأنها لا تستطيع أن تراني أموت.. ولقد قالت لي: إنّ هذا واجبها كزوجة أن تسبقني ولو بلحظات إلى الدار الآخرة، لتكون هناك في استقبالي! فأذعنت، وأمرت طبيبي الخاص الموكول إليه هذه المهمة، أن يبدأ بحقنها هي أولاً بالسم الذي أعد لذلك.. وقد ماتت أمامي في مثل لمح البصر بلا ألم وكأنها إغفاءة انتابتها على حين فجأة.. فأمرت عندئذ الطبيب أن يصنع بي ما صنع بها، فما كادت إبرة الحقنة تغرز في جلدي حتى أغفيت ثم تنبهت فإذا أنا بجوار إيفا.. في عالمنا الذي أخاطبك منه!..

ـ ألا يقوم الآن في نفسك أسف لإثارتك الحرب؟

ـ لست آسف على سوء الحظ!

ـ لقد أردت أن تقامر بكل شيء فكان من الواجب أن تتوقع الحظ السيء.. كما تتوقع الحظ الحسن!..

ـ عندما تكون المسألة بالنسبة لأمة، مسألة حياة أو موت فلا بد من المقامرة بكل شيء.. ولقد قامرت ألمانيا بحياتها مرتين في ربع قرن!..

ـ ألم يخطر لك أن تدرس طرائق إنجلترا في المقامرة؟

ـ إنجلترا لا تدخل أبداً في ميدان اللعب إلا وفي كمها أوراق مغشوشة!..

ـ ربما ولكنها استطاعت أن تكسب إمبراطوريتها الواسعة.. لعبة لعبة.. وورقة ورقة.. وخدعة خدعة.. على مهل.. دون أن تثير ريبة اللاعبين، أو سخط المراقبين، أو حذر المحاذرين...

ـ صدَقْتَ، إنها دائماً تحتل مكانها من المائدة، في صورة "لورد" يرتدي ثياب السهرة ويضع "المونوكل" ويجلس بتؤدة ووقار بورقه المغشوش.. في كم قميصه المنشى.. بين قوم شرفاء لا يشكون في سلوكه، ولا يعتبرونه إلا مثال النزاهة والصدق والشرف، لأنه لا يتحدث فيمن حوله دائماً إلا بهذه الكلمات، ويظل هذا "الجنتلمان" اللص يبتز أموال ملاعبيه، ويختلس ما في جيوب مجالسيه، بابتسامة لهذا وملاطفة لذاك، ومهادنة مع واحد، ومواطأة مع ثان، واتفاق ودي مع ثالث.. إلى أن تنتهي الليلة بمكسبه المرسوم، فينهض مشيعاً بالاحترام قائلاً للحاضرين: "جود بأي جنتلمين" إلى الليلة القادمة!.. وهلم جرا..

ـ أما أنتم معشر الألمان فلا صبر لكم.. تريدون في ليلة واحدة وبهجوم خاطف وحظ بارق أن تحصلوا على كل شيء دفعة واحدة!..

ـ لأننا لسنا لصوصاً!.. لقد كان في يدنا حقاً ورقة فائزة، حصلنا عليها بكدنا وعرقنا وعبقريتنا وعلمنا... وكنا نظن أن هذه الورقة الصحيحة وحدها يمكن أن نقامر معها بكل ما لنا وحياتنا!..

ـ لا تنكر أن الإنجليز في هذه الحرب الأخيرة قامروا هم أيضاً بكل ما لهم وحياتهم؟!

ـ لا يا سيدي أنهم قامروا بكل حياة الفرنسيين وبكل ما في جيوب الأمريكان!

ـ والآن ما رأيك في المستقبل؟

ـ رأيي أقوله في جملة واحدة وأنصرف عنك:

"لقد خسرت ألمانيا الحرب لأنها كانت وحيدة وسيخسر الحلفاء السلام لأنهم عديدون"!...

مع كليوباترا

ضغطت العصا على زر الجهاز.. وطلبت كليوباترا..
فسمع صوت جميل:

ـ أنا كليوباترا.. من يخاطبني؟

ـ شخص لا علاقة له بأنطونيو

ـ من أنطونيو؟

ـ عجباً.. ألا تعرفين حبيبك الذي انتحرت من أجله؟

ـ من قال لك إنني انتحرت من أجل أنطونيو؟

ـ ألم تسكبي في جسمك السم من أنياب الحية عندما علمت أنه أغمد خنجره في جسمه من أجلك؟

ـ ربما مات هو بسببي، ولكني لم أمت بسببه..

ـ أتنكرين أن الحب هو الذي..

ـ الحب عند الرجل مرض، فلا عجب أن يحاول التخلص منه بالموت، ولكن الحب عند المرأة صحة فلا معنى أن تتخلص منها بالانتحار..! كلا يا هذا... أنطونيو مات لأنه فقدني، وأنا مت لأني فقدت عرشي!

ـ ألم تقابلى أنطونيو في الآخرة؟

ـ بالطبع تقابلنا مرة أو مرتين، وضحكنا كثيراً من حماقتنا على الأرض.. وقد اتهمني بأني أضعت مستقبله.. وقد اتهمته بأنه أضاع عرشي!.. ولكن الحب على أي حال لم يكن موضوع الحديث..

ـ أنت إذن لا تؤمنين بالحب..

ـ إني كامرأة أومن بالحب.. ولكن مثلي لم يكن لها الحق في أن تكون امرأة. إذا قدر لرأس أن يحمل تاجاً... فلا ينبغي أن يؤمن بغير شيء واحد: أن يحافظ على ذلك التاج حتى لا يسقط منه في التراب، لأنه إذا سقط.. سقط معه شعب بأسره.. كان جبيني يحمل تاج مصر.. ذلك الجبين الذي قيل إنه ناصع وضاء جميل.. وكانت روما غول الدنيا الذي يبتلع التيجان والعروش، غولاً ذا رأسين، أحدهما

يدعى قيصر والآخر أنطونيو.. كان من المستحيل على ذراعي الطريتين أن تضغطا على عنقي الرأسين في عين الوقت.. فضغطت أول الأمر على عنق قيصر، حتى ثبتني على عرشي، وضمن لي من جانبه الأمان، ثم أفلت مني.. ولكن الرأس الآخر انحنى لي بعد ذلك طائعاً، ومكنتني الفرصة من أن أعصر ذلك العنق وأهصره، وأسيره وأسخره لمصلحة بلادي، حتى وهن وخار ولفظ النفس الأخير.. ولكني معترفة بأني بذهابه ذهب مني كل شيء.. حسبي أني استطعت أن أحارب ردحاً من الزمن.. وأن أجعل الرأسين يتناطحان بدل أن يجتمعا على ابتلاع الأرض..

ـ ولكنك أحببت أنطونيو حباً حقيقياً!..

ـ ربما، ولكن ألم يخطر لكم أن تتساءلوا: إذا كنت أحببته حباً حقيقياً فكيف لم أترك عرشي وتاجي وشعبي لأخرج مع حبيبي إلى جزيرة نائية في وسط البحار، نعيش للحب، ولا لشيء غير الحب؟.. هكذا فعل فيما علمت ملك من ملوككم العصريين!..

ـ نعم ملك إنجلترا السابق من أجل ليدي سمبسون!

ـ وهذا رجل لا امرأة.. رجل يزن الأمور، كما يقال، لا امرأة تدفعها الأهواء.. ملك من ملوك هذه العصور لا ملك

من ملوك الأساطير!.. ملك ذكي طموح ميال للإصلاح كما علمت، يترك شعبه المحتاج إلى ذكائه وإخلاصه ليعيش في جزيرة نائية مع من؟..

مع امرأة لا جمال لها ولا نضارة، ولا عراقة.. لكن هذا لا يستغرب.. يكفي أن تعلم أنه إنجليزي لتحكم في الحال على مقدار ذوقه!..

ـ حقيقة.. هذا سؤال يجب أن نلقيه على أنفسنا: لماذا لم تتركي شعبك وتذهبي مع أنطونيو؟!

ـ إني لم أفعل ذلك حتى بعد الهزيمة في موقعة أكتيوم.. وقد تبين لي شبح روما تبتلع مصر.. ويد المنتصر تضع في معاصمي الأغلال... ولم يبق لي من شخصي إلا المرأة، وفي كنوزي غير الحب.. ما كان أنطونيو وقتئذ يتمنى من دنياه غير الهرب معي إلى جزيرة نائية مجردة عن العروش والتيجان لنقضي بقية العمر في سلام وصفاء وأمن وغرام.. ولكني لم أفعل.. لأني كما قلت لك، لا أملك الحق في أن أكون مجرد امرأة.. خلفي شعب أنا ملكته.. وعلى جبيني تاج حكمه.. لا ليضيء بمتعتي.. بل ليتألق بمجده.. ويوم يضام هذا الشعب يجب أن أموت!.. ذلك قانون التيجان.. هي نور ونار فوق

الرؤوس، وليس لمن كتب عليه حملها أن يهرب من هذا المصير!..

ـ وما قولك إذن في ذلك الذي هرب؟.. لماذا لا تقولين أنه كان يحب.. أما أنت فكنت امرأة لا قلب لك..

ـ أرجو ألا تؤلمني بهذا الكلام.. ليس لك أن تتهم قلبي وأنت لا تعرف عنه شيئاً.. هذا القلب الذي اتسع لحبيبين! وطني وأنطونيو! كل ما سمعته مني حتى الآن كان حديث ملكة! ولكن المرأة لم تتكلم بعد.. لقد أحببت أنطونيو حباً لم ينسنى آمال بلادي.. ولكنه كان حباً عظيماً..

ـ حب أنطونيو لك هو الذي كان حباً عظيماً؟!

ـ لست أنكر ذلك.. ولن أنسى أبداً لحظة موته: لقد كانوا أبلغوه كذباً نبأ موتى.. فصاح: وما تنتظر بعد الآن يا أنطوان! لقد سلبك القدر من كانت تحبب إليك الحياة!.. قالها وهو يدخل حجرته وينزع عنه درعه ثم مضى يقول: "كليوباترا، لا أشكو من فقدي إياك فأنا لاحق بك بعد قليل، ولكن الذي يحزنني هو أن إمبراطوراً قوياً مثلي تسبقه في الشجاعة امرأة"! ولم أكن للأسف قد سبقته ولا استحققت هذا الإطراء!

ـ ولكنه مات ولم يعلم أنك على قيد الحياة..

ـ بل علم ولم تكن روحه قد فارقت بعد جسده، فأمر رجاله أن يحملوه إلى، فما كدت أراه حتى فقدت صوابي، وصرت أمسح دماءه بوجهي، وأمزق غلائلي وأضعها عليه، وأضرب بيدي صدري، وأنشب في لحمي أظافري، وأناديه بيا روحي، ويا حبيبي.. وقد طلب خمراً ليروي به ظمأه أو ليعجل به موته، ومات وهو يرجو لي أن أوفق إلى الوسائل التي تصون كرامة ملكي وشرف شعبي..

ـ وتركته يموت ولم تموتي معه؟..

ـ لو كنت مجرد امرأة وزوجة وحبيبة لفعلت.. ولكن هذا أيضاً لم يكن من حقي.. كان على أن أفاوض قيصر المنتصر، ليبقى مصر لأبنائها.. ويجعل ملكها في أولادي... ولا يخضعها لحكمه ولا لحكم روما، ولكني رأيت المراوغة في عينيه فأدركت أن مهمتي قد انتهت.. وأن على الملكة أن تؤدي واجبها.. وعلى المرأة أن تطلق العنان لعواطفها وتسير إلى مصيرها..

ـ وماذا كان ينوي قيصر أن يفعل بك؟

ـ كان يريد أن يرسلني مع أولادي إلى روما..

لأعيش أسيرة وأموت غريبة في تلك البقاع!.. ولكني لم أمكنه من تحقيق أمنيته.. وأني لم أزل أذكر الكلمات التي لفظتها على قبر أنطونيو قبل أن أموت.. ولقد كنت سألت قيصر أن يأذن لي بإجراء الطقوس الجنائزية لأنطونيو، فأذن.. فذهبت مع وصيفاتي وألقيت بجسمي على قبره وجعلت أصيح به: "يا عزيزي لم تمض غير أيام قليلة منذ أن وضعت على جثمانك يديّ.. كانتا في ذلك الوقت طليقتين، واليوم أجيء إليك بهما مصفدتين في غل الاستعباد.. لا تنتظر بعد الآن من كليوباترا تكريماً خيراً مما ترى.. وهذا مع ذلك آخر ما تستطيع تقديمه إليك.. فهم يريدون أن ينتزعوها من جوارك.. طول الحياة التي عشناها معاً.. ما استطاع أحد أن يفرق بيننا.. واليوم يريدون أن يقصوا في الموت أحدنا عن الآخر.. فأنت الروماني ستمكث هنا تحت ثرى مصر.. وأنا المصرية سأدفن هناك في إيطاليا.. أنطونيو، خبئني معك تحت هذه الأرض... دعني أقاسمك قبرك هذا.. من بين كوارثي التي لا تعد.. واحدة هي أشقها على نفسي.. تلك هي الأيام القليلة التي عشتها بعدك!".. وذلك كان آخر ما خاطبت به أنطونيو على الأرض وكنت مخلصة في كل حرف لفظته، ولقد توجت بعد ذلك قبره

بالزهور، ثم قبلته، ونهضت آمرة بإعداد الحمام.. واغتسلت ثم تناولت م الطعام أفخره، ولبست ثيابي الملكية، واضطجعت على سرير من ذهب، ثم أمرت بإحضار الحية التي ستخرجني من الأرض إلى السماء. كما أخرجت الحية الأخرى حواء من السماء إلى الأرض..

ـ أرجو لك الراحة في السماء فإن أهل الأرض ينهشون سيرتك في كل زمان!..

ـ فليقولوا ما شاؤوا.. كل ما على الأرض عبث.. ولكني مع ذلك لم أكن شريرة.. كنت ملكة تحب شعبها، وامرأة تحب رجلها، وأماً تحب أولادها.. كل مأساتي أن قلبي الواحد كانت تنهشه هذه الألوان المختلفة من الحب!..

مع روميو وجولييت

ضغطت العصا على زر الجهاز.. وطلبت جولييت وروميو.. فسمع صوت رقيق:

ـ أنا جولييت!.. من يخاطبني؟ اسكت يا روميو.. دعني أخاطب هذا الذي يناديني من عالم الدنيا.. ماذا تقول يا روميو؟ أنا خفيفة طائشة متبذلة مستهترة.. أسعى إلى لفت الأنظار؟.. وأنت أتنسى نفسك: أيها الفظ السخيف الخالي من الرقة والإحساس؟. اذهب عني.. اذهب عني قليلاً.. دعني أتنفس بعيداً عنك لحظة.. ألا يستطيع أحدنا أن يعيش منفصلاً عن الآخر دقيقة؟.. إذا قالوا جولييت قالوا روميو، وإذا قالوا روميو ذكروا جولييت.. يا لها من "لصقة" ثقيلة!.. وإلى متى؟ إلى متى؟..

ـ آلو.. آلو.. هنا الدنيا...

ـ أنا جولييت.. من ينادني؟ أف.. الحمد لله قد ابتعد عني..

ـ تقصدين روميو؟..

ـ طبعاً ومن غيره أقصد؟ لعنة الله عليه!

ـ عجباً.. كنا نحسبك سعيدة معه في الآخرة..

ـ سعيدة! مع هذا الجلف؟

ـ جلف؟ تقولين ذلك عن روميو هذا المثل الجميل للرقة في العاطفة والشاعرية في الغرام؟

ـ أخدعكم أنتم أيضاً.. كما خدعني؟ ولكني كنت فتاة بريئة غريرة فتنني هذا "البهلوان" وهو يتسلق الحبل إلى شرفتي في إطار خلاب من ليل ناعس وقمر طالع وشجر هامس وبلبل صادح، ولقد أخلصت له الحب حتى قادني حبي إلى حتفي..

ـ هو أيضاً قاده حبه لك إلى حتفه

ـ هذا صحيح.. لقد كنا قلبين مجنحين يطيران بلا بصر، كالوطاويط.. في نهار العقل والمجتمع!..

ـ كنتما شعراً رائعاً يطير في ربيع الأجيال!..

ـ أتصدق هذا الهراء؟.. ولكنك معذور!.. أنا أيضاً صدقته يوماً.. وما كنت أرى في روميو إلا "نغما" يرتدي سراويل موشاة ويتحلى بسيف مذهب، وما كان هو يرى فيَّ إلا "أغنية" تبدو في شرفتها تلمع في الدمقس.. ولكني ما رأيته قط إنساناً، وما رآني قط إنسانة.. حتى تعانق النغم والأغنية وانطلقنا في الفضاء من دنيا الأرض إلى السماء.. حيث الأردية تخلع والمعدن يظهر.. وبدت الطبائع على حقيقتها.. فإذا طبع روميو شيء آخر عما تخيلته وتتخيلون.. إنك لن تدرك ما أقول.. لأن الذي بقي لكم منا في الأرض ذلك النغم والأغنية "روميو وجولييت"!

ـ ما أحلاهما اسمين وعشيقين!..

ـ وما أشقاهما من زوجين!.. لو أن القدر مد في أجلينا على الأرض لشاهدتم بأعينكم نهاية هذا الحب وإخفاق ذلك الزواج، فأنا التي عرفت بعدئذ طباع روميو السيئة، ورقته الزائفة، أؤكد لك أني ما كنت أحتمله زوجاً في الدنيا أكثر من شهرين!.. وهو أيضاً يقول عني مثل ذلك، ويتهمني بالابتذال والاستهانة والأنانية..

ـ حمد لله إذن الذي خطفكما من الأرض في الوقت المناسب.. وإلا كانت وقعت أعظم قضية طلاق عرفها التاريخ..!

ـ الطلاق!.. يا له من نعمة! ولكن هيهات أن نظفر به ها هنا.. ما دام القدر قد سلط علينا ذلك المجنون الذي يصلح بيننا كل ساعة على الرغم منا

ـ ذلك المجنون؟!

ـ نعم، شخص يسمى "شكسبير".. لسنا ندري ما شأنه بنا.. يتدخل في أمورنا.. ويحشر نفسه بلا مبرر في كل صغيرة وكبيرة مما يمسنا.. كلما احتدم الشجار بيني وبين روميو.. طلع لنا "شكسبير" هذا.. فجعل يقبل رأسينا أيدينا وأقدامنا، يتوسل إلينا أن نمسح "العيب" في ذقنه.. وأن ننهي الخلاف الذي شجر.. زاعماً أن سوء أدبنا وخلقنا وما نتراشقه من بذيء الألفاظ أحياناً في خصامنا، أشياء تمس كرامته شخصياً وتنال من سمعته.. وفي الحق أن إخلاصه وحرارته ودموعه التي يذرفها كل مرة تألماً من حالنا تثير فينا الشفقة عليه، فنذعن صاغرين، ونهدأ مكرهين..

ـ أو لا تعرفان ما هي علاقة "شكسبير" بكما؟..

ـ أبداً.. ماذا يكون أكثر من شخص يعيش على هامش حياتنا.. متمسكاً بنا "متمحكاً"؟ وأمثال هذه "الطفيليات" كما تعلم لا تخلو منها أسرة.. ولكنه مع ذلك شخص طيب القلب كل غايته أن يسود الصفاء بيني وبين روميو.. وأن نتبادل أرق عبارات الحب.. وأن يسمعنا نتحاور بذلك الشعر الرقيق الذي أنشدناه في الشرفة تلك الليلة المقمرة.. فيجلس بيننا.. ويرجو من روميو أن يردد عبارته المعروفة: "يا سيدتي النبيلة.. أقسم على حبك بهذا القمر الساحر.. هذا القمر الذي يطلى بالفضة رؤوس الشجر!". فأجيبه أنا بعبارتي المشهورة: "آه.. لا تقسم أبداً بالقمر.. هذا القمر المتغير.. الذي يبدل قرصه في كل شهر.. إني أخشى أن يكون حبك متغيراً كالقمر!.."

ـ أما كان ترديد هذا الشعر يثير فيكما شجون الماضي؟!..

ـ لا.. على الإطلاق.. إنما كنا نردده لنسر ذلك المسكين "شكسبير".. وكان هو وحده الذي يتأثر من إنشاده وتبعث في نفسه الشجون.. ويطرق طويلاً ويهبط في غياهب الذكريات ويغرق في بحار التأملات.. ولا يوقظه مما هو فيه إلا عودتنا إلى العراك أنا وروميو.. فينهض واضعاً

أصبعيه في أذنيه حتى لا يسمع ألفاظ السباب، تحل في رأسه كما يقول محل ذلك الشعر الذي كان يخلب الألباب!

- لقد عذبتما هذا الرجل في الآخرة

- عذبناه؟!.. بل هو الذي عذبنا.. ماله ومالنا.. أمامه الآخرة واسعة.. فلماذا لا يحلو له وجود إلا معنا؟! إني لا أستطيع أن أحادث زوجي روميو على انفراد دون أن أجد "شكسبير" هذا يتسمع.. ولا أن أفعل شيئاً من دون أن أجده يتفقد سلوكي.. هذا لا يطاق.. إنه بيننا مثل الحماة في بيت الزوجية!..

- وروميو.. هل يحبه؟

- روميو مثلي يعجب لوجود هذا الرجل بيننا.. ولكن يظهر أن هذا أمر لا حيلة لنا فيه.. لو أني نجحت فقط في أن أجعله ينحاز إلى جانبي ضد روميو لكان له بعض النفع.. ولكنه ثابت في موقفه لا يحيد عنه: يجب أن نتصافى دائماً، أنا وروميو، وأن يموت أحدنا في الآخر حباً.. هذا كل غرضه.. وهو يقول دائماً ويكرر أن هذا هو دورنا المقدر لنا إلى الأبد، ويجب ألا نخرج عنه قيد أنملة.. وهذا بالطبع قول مجانين. ولا يمكن في أي حياة زوجية أن يستمر هذا طويلاً،

كيف يريد مني هذا المجنون أن أتغنى طول الأبد باسم روميو كما كنت أتغنى به قديماً ليلة قلت:

إن الوردة إذا تغير اسمها لما كفت عن نشر شذاها الحلو وعطرها.. كذلك روميو لو غير اسمه لما انفصلت عنه شخصيته الكاملة ولا صفاته الساحرة!.. لا أستطيع أن أقول ذلك اليوم عن زوج يضايقني بملاحظاته السمجة.. إليك مثلاً بسيطاً.. لقد حدث منذ وقت ليس بالبعيد أن صعدت إلى الآخرة امرأة مولعة بالأناقة، قيل أنها ماتت من السكر في حفلة ساهرة... ولقد رأيت في قدمها حذاء بكعب عال عجيب الطراز فاحتلت حتى حصلت عليه، ووضعته في قدمي. فصاح بي روميو ساخراً: "مرحى بجولييت، زهرة (فيرونا) النقية، وسليلة آل كابوليت.. لقد انقلبت غانية من غانيات باريس المتهتكات!".. فلم أتمالك من الغيظ، ونزعت "فردة" حذاء رميت بها روميو.. ولكنه انحرف عن مرماها فأصابت صلعة شكسبير!..

- يا له من ضحية!..

- من؟ .. روميو؟..

- لا.. بل..

ـ عفـوا.. هـذا روميـو قـد اقـترب.. ولـن يتركـني بغـير تنغيص.. أنصح لك أن تطلب محادثتي في وقت آخر.. اسـكت يا روميو.. لا.. إني لم أتحدث عنك بخير ولا بشر.. إنك سمعت أسمك خطأ.. تقول إني كاذبة؟. بل أنت المغرور السـخيف.. إذ تعتقـد إنـي لا أجـد موضـوعاً غـيرك أتحـدث فيـه.. آه! لكـم أتمنـى الخـلاص منـك.. متـى يقولـون: "جولييـت" فقـط دون أن يلصـقوك بـي.. جولييـت بـدون روميـو.. متـى ذلـك.. متـى؟ إنـك "لصقة".. لصقة ثقيلة!.. لصقة أبدية!..

مع جان دارك

ضـغطت العصـا علـى زر الجهـاز وطلبـت "جـان دارك".. فسمع صوت يقول:

ـ أنا جان دارك..

ـ القديسة

ـ مـا قصـدت أن أكـون قديسـة، ولكـني قصـدت أن أطرد الإنجليز من أرض وطني فرنسا..

ـ أنت أيضاً؟ ومنذ خمسمائة عام؟.. كل إنسان يريد أن يطـرد الإنجليـز مـن أرض وطنـه!.. هـذا الطـاعون المنتشـر في الدنيا من قرون.. متى يجلو عن أراضي الناس؟!

ـ هل أنت فرنسي؟!

ـ لا يا سيدتي

ـ أنت إذن محظوظ يا سيدي.

ـ لماذا؟

ـ لقد كنت أنا فرنسية.. وطردت الإنجليز، فحرقني الفرنسيون حية!..

ـ كانت غلطة لا تغتفر!.. ندم عليها الفرنسيون فيما بعد وحاولوا أن يكفروا عنها بأثواب البطولة والوطنية التي أسبغوها عليك.. ألم تشاهدي من عليائك ذلك التمثال الرائع الذي نصبوه لك في أفخم ميادين باريس.. يمثلك في دروع الحرب، منتضية السيف، ممتطية جوادك المطهم؟

ـ بل.. رأيت ذلك وصدقته، ولكن ما قولك في نابليون الذي جاءني هنا في العالم الآخر يحييني ويقدم إليّ نفسه ويقول لي باسماً: "مصيري مصيرك.. والفرنسيون هم الفرنسيون!". لقد كان يبكيني هذا الرجل وهو يروي لي قصته، في نبرة حزينة، تلمع فيها السخرية، كما يلمع البرق في السحابة القاتمة.. روى لي خبر ذلك المجد الذي عقده على جبين وطنه.. وذلك النصر تلو النصر الذي جعل من فرنسا غولاً أفزع الإنجليز وحدَّ من شهوتهم للسيطرة، وهدد

خطتهم المرسومة للتوسع والانتشار في كل البقاع.. فأقسموا سراً أن يؤلبوا عليه الثعالب والضباع لأن هذا الأسد الإنجليزي أجبن من أن يخرج للصيد بمفرده فهو يهجم بهيبته، ويجعل الآخرين يهجمون بالمخلب والناب، فإذا وقعت لهم الفريسة، كان له منها نصيب الأسد وللأعوان ما ينبذه السيد المهاب.. ونجح الإنجليز آخر الأمر لأن كثرة الأعوان تغلب شجاعة الفرد.. وهزم نابليون.. وانتظر من أمته أن تضمه على الأقل إلى أحضانها.. وأن تقول له: لقد أديت واجبك أيها الابن البار.. وآن لك أن تستريح على صدر أمك فرنسا.. معززاً مبجلاً كما يفعل الإنجليز بأبطالهم!. ولكن فرنسا كعادتها قدمته غير معزز ولا مبجل إلى أعدائه الإنجليز.. فألقوا به سجيناً مهاناً في جزيرة مقفرة!. وهو مصير كنت أخشاه على نفسي.. لقد تبين لي عند محاكمتي أن بعض التراجع مني والتلطف في الأقوال كان خليقاً أن يبدل الحكم من الحرق إلى السجن.. ولكني فضلت الحرق.. لأنه ليس أشق على النفس من أن تعيش طويلاً وهي ترى جحود الوطن!

ـ وطنك فرنسا اليوم غيره في الماضي.. أنه اليوم على الأقل يفهم معنى العدالة!

ـ العدالة!.. كدت أصدق ذلك.. لولا أن جاءني منذ شهور وزير فرنسي يدعى "لافال".. قال لي أن أهل وطنه الفرنسيين أعدموه، لأنه كان عدو الإنجليز اللدود.. وكانت محاكمته خزياً سوف يلصق بالقضاء الفرنسي إلى قرون.. كان قضاته يعرفون قبل أن يتخذوا مجالسهم من المنصة أنهم سيقتلونه.. وكانوا يضعون أصابعهم في آذانهم كلما هم بالدفاع عن نفسه.. لطالما جأر المتهم بالصياح في القاعة قائلاً لقضاته أو على الأصح جلاديه: "اصغوا إلى دفاعي.. ثم اقتلوني إذا شئتم.. فما دمتم تريدون موتي باسم العدل.. فليكن هنالك على الأقل عدل!". ولكنهم في الحقيقة كانوا يريدون موته وكفى.. أما العدل فلا شأن لهم به.. ولقد روى لي فيما روى خبر المارشال بيتان أحد أمجاد فرنسا الخالدين، وابن من أبنائها المخلصين.. هذا الشيخ الوقور الذي جاوز التسعين وآثر مواجهة الكارثة مع أهل بلاده على الهرب والراحة والانزواء في بلد أجنبي محايد بعيد عن أخطار الحروب.. كفى أن يغضب الإنجليز على سياسته التي بناها على مصلحة بلاده وحدها دون مصلحة الإنجليز، ليدفع بهذا القائد العسكري الهرم أمام محكمة تذل كرامته وتهين سنه، وتشوه ماضيه، وتمحو مجده،

وتصدر حكمها المبيت عليه فتجرده من شارات بطولته ومن رتبه العسكرية، وتأمر بأن يلقي إلى آخر عمره الواهن الضعيف في جزيرة جرداء، رطبة الهواء، موحشة مقبضة ليس فيها من أصوات غير صرير الرياح وعصف الأنواء.. كلا.. لقد صدق نابليون يوم قال لي: "الفرنسيون هم الفرنسيون!" نعم.. إنهم هم دائماً.. قلما يتغيرون!.

- إنهم ليسوا من فصيلة "الأقوياء"!...

- ربما كان هذا صحيحاً.. وإلا فبماذا تفسر تكرار هذه الحوادث على مر التاريخ... فرنسا وحدها هي التي تقوم فيها أمثال هذه المحاكمات والمجازر لأبنائها بوحي من أعدائها المتفوقين أو الأقوياء.. فرنسا ومن على شاكلتها في النوع والفصيلة من أمثال إيطاليا.. التي أعدمت وشوهت ومثلت بابنها ومصلحها "موسوليني".. تلك أشياء قلما تحدث في ألمانيا أو في إنجلترا، بل قد يدهشك كما أدهشني أن تعلم ما قاله لي "لافال": إن فرنسا المحتلة بالألمان، كانت تتخاذل في كل يوم إلى حد الرغبة في الاندماج في الغالب.. هل تتصور أن أكثر من مائة ألف فرنسي طلبوا في أيام الاحتلال الألماني القليلة لفرنسا أن يتجنسوا بالجنسية الألمانية؟!

ـ يا للعجب!.. ولقد احتل الإنجليز أرض مصر ما يقرب من سبعين عاماً فلم نسمع بمصري واحد طلب التجنس بالجنسية الإنجليزية!..

ـ لا يدهشني ذلك من مصر ولا من الشرق.. أرضكم كانت مهبط الآلهة والأنبياء والقديسين.. أنتم الفصيلة الأولى "لأقوياء النفس"!

ـ الم تؤمني حقاً وأنت على الأرض بأنك قديسة؟

ـ قلت لك لست أدري.. كل ما أذكر أني كنت فتاة قروية لا أقرأ ولا أكتب.. وكنت أسمع من والدي ومن أهل القرية أن أعداءنا الإنجليز يحتلون أرض فرنسا.. وبينما أنا أرعى الأغنام وأعود بها ذات مساء سمعت صوت القديسة كاترينا تأمرني باسم الله الذي في السماء أن أترك القرية وأذهب مع الجيش لأخلص حصن "أورليان" من أيدي الإنجليز، لأن في خلاصه خلاص فرنسا.. وأن أتوج "الدوفين" في مدينة "رانس" ملكاً على شعبه.. فصدعت بالأمر وقمت إلى العمل.. ولم أتركه حتى أتممت ما أمرتني به السماء!..

ـ أحقيقة أنك مت عذراء؟ كما يقول التاريخ؟

وأنك تركت الدنيا ولم تضمي إلى صدرك رجلاً؟

ـ ما كدت أبلغ سن الحب، حتى ألقيت بجسمي في صدر حبيب.. ضمني ضمة أحرقتني.. ذلك هو "وطني"!.

ـ يا له من حب قاس فظيع!.. أما كنت تفضلين ضمة شاب تلهب قلبك ولا تؤذي جسمك!؟

ـ الآن ربما فضلت ذلك!.. ما من عقاب ينزله القدر بامرأة أفظع من أن يميتها "عذراء".

ـ لعل تلك هي تضحيتك الكبرى!

ـ نعم تلك هي تضحيتي الكبرى!.. لن أغتفر لفرنسا ذلك.. كل شيء أنساه إلا هذه.. بعد كل هذه القرون والأزمان، ما زلت أردد في وحدتي: لا يؤلمني يا فرنسا أني مت من أجلك حرقاً.. ولكن يؤلمني أني مت من أجلك "عذراء"!.. وإن كنت أقبل من الكنيسة لقب "القديسة" فمن أجل هذا السبب وحده!..

ـ لقد اتهموك في المحاكمة بأنك زنديقة وأنك محتالة وكاذبة وأنك لم تسمعي أقوالاً خارقة! هل قابلت في الآخرة القديسة كاترينا، وتحققت من أنها هي التي حادثتك بتلك الأصوات؟..

ـ بالطبع قابلتها وسألتها.. ولكنها قالت لي إنها لا تذكر.. فهي تتحدث في السماء كثيراً... ولا يستبعد أن يكون صوتها قد وصل إلى سمعي عفواً ذات مساء! لا شك عندي الآن أن الصوت صوتها.. أما أوامرها الحربية والسياسية فربما كان ذلك من خيالى..

لأن القديسة "كاترينا" لا تعرف شيئاً عن الإنجليز ولا عن "أورليان" ولا عن "الدوفين"!

ـ أو يمكن لأصوات القديسين في الآخرة أن تصل إلى آذاننا عفواً في الأرض؟!

ـ ولم لا؟ أليست أصواتاً ترسل في الفضاء فيلتقطها "القلب" المستعد لذلك... لقد حدث هذا لكثيرين بعدي.. وها هنا موضع الخطورة، إنما الخطر في أن يعلم الناس أنك سمعت هذه الأصوات، فهم عندئذ لن يسمحوا لك بغير واحد من أمرين: أما سلكك في عداد المجانين، وأما دفعك إلى الحرق حياً.. هكذا جرى حكم الناس: من سمع صوت السماء حرمت عليه أصوات الآدميين

ـ وكيف أخاطبك أنا الآن بهذا "التليفون" وأسمع صوتك وصوت غيرك من سكان السماء؟!

ـ وهل يعرف الناس عنك ذلك؟

ـ طبعاً.. لأني أنشره عليهم

ـ ألم يحرقوك حياً؟

ـ لا...

ـ ألم يحسبوك في المجانين؟

ـ ربما حدث هذا منذ زمن طويل دون أن أدرى..

مع جحا

ضغطت العصا على زر الجهاز وطلبت جحا.. فجاء صوت ساخر يعلن:

ـ أنا جحا... من يناديني؟

ـ القاهرة...

ـ القاهرة بلدي المحبوب؟

ـ بلدك؟ وكيف يسمونك "جحا الرومي"؟

ـ الرومي؟.. هي مصيبة يا سيدي من مصائب الدهر التي ابتليت بها.. كلما سرت خطوة نسبوني إلى أمة.. فأنا من الأروام والأعجام والشوام... حتى الأتراك!.. ولكن الله يشهد أني ما ولدت إلا في حارات القاهرة.. بمرحها الحلو

ونكاتها الرائعة... ولكن ماذا تقول في نكد الدنيا الذي يأبى إلا أن يرزأني بثقيل بعد ثقيل لا يحلو له غير التسمي باسمي.. خذ مثلاً ذلك التركي "الغشيم" المدعو نصر الدين خوجه.. لو رأيت سحنته وسمعت لهجته ولكنته لاستعذت بالله! ومع ذلك تجده يشيع عن نفسه أو يجد من يشيعون عنه أنه هو "جحا".. لقد قابلته هنا في الآخرة، وتشاجرنا وتشاتمنا وتطاول علي بقوله إنه هو معلم وفيلسوف، أما أنا فمضحك ومهرج.. فصاح به أهل الآخرة يسكتونه بقولهم: "ليس للفلسفة في الآخرة معنى ولا مكان، إنما المكان الأول فيها للمرح"

ـ أو تمرحون كثيراً في الآخرة؟

ـ نحن لا نفعل غير ذلك.. والقوم هنا يحبونني حباً جماً.. لأنهم يتسلون كما كانوا يفعلون في الدنيا بتداول النوادر يؤلفها بعضهم في بعض.. ويصدرونها بالعبارة المألوفة: "يُحكى عن جحا.."

ـ عجباً!.. أو لست أنت مؤلف نوادرك في الدنيا؟

ـ حاشا لله يا سيدي أن أكون مؤلفاً أو ملفقاً.. ولو أني ألفت من رأسي هذه النوادر لما حفل بها الناس.. إن هذه النوادر تضحك الناس لأنهم هم الذين يصنعونها

ـ ما هذا التواضع منك؟

ـ بل إني أقول الحقيقة: الدليل على أنها من صنع الناس أنها مثلهم فيها الجيد والرديء، والظريف والسخيف، وهي كلها تعيش وتتداول، بعجرها وبجرها ونفيسها وتافهها، من عصر إلى عصر، ومن مكان إلى مكان، ومن بيئة إلى بيئة.. كأنها الناس أنفسهم بجمعهم وخليطهم.. وإنهم ليسبحون في بحر الدهر والأجيال، رافعين بيمناهم فوق رؤوسهم كتاب نوادرهم!..

ـ تريد أن تقنعني بأن هذه النوادر لم تقل لك؟

ـ يقع لي كل هذا؟ أنا وحدي؟ أهذا ممكن الحدوث؟ لقد تزوجت في هذه النوادر مئات المرات ومت ودفنت مئات المرات على مختلف الصور والأشكال، وكنت الرجل الطيب والرجل العبيط، واللص والمحتال، والكريم والبخيل، والسمين والنحيل، والموسر، والفقير، والفظ واللطيف والعاشق والمنافق والخادع والمخدوع، والعاقل والمجنون، وكل ما يوجد في الخلائق من صفات وعيوب ومناقب وذنوب..

ـ وما وضعك إذن في هذا الأمر؟

ـ حائط يا سيدي.. ما أنا إلا حائط قائم في الطريق العام بين جموع الناس.. كل من جادت نفسه بحكاية رفيعة أو وضيعة، مسحها في وألصقها بي.

ـ أو يرضيك هذا الوضع؟

ـ وهل يستطيع الحائط أن يرضى أو يكره.. أو يمسك بتلابيب من يخط على صدره كلمة أو يعلق على سطحه ورقه؟

ـ وما الذي جعل منك حائطاً للناس دون خلق الله؟!

ـ اتساع صدري للنكتة الجيدة يا سيدي! وحبي للمرح وتستري على أول كاذب جبان لينسب إليَّ ما شاء.. وأن ضحكي وقبولي للنكتة الرائقة اضطراني أن أقبل إلى جانبها مئات من النكات السخيفة، دون أن أستطيع البصق في وجوه قائليها!

ـ لو علمت كيف يستخدم اسمك لترويج النوادر؟

ـ لا يدهشني ذلك.. فهنا في الآخرة ينسبون إلي أيضاً كل نادرة يراد ترويجها!.. لقد أراد زنديق أن يسخر من رضوان فسمعته يتحدث في الناس قائلاً: "يحكي عن جحا أنه أراد مغافلة رضوان ودخول الجنة خلسة.. فتقدم إليه في

لحظة إغفاءة وقت الظهيرة وقال له: اسمح لي يا سيد رضوان بأن ألقي نظرة من الباب على صديق لي في الجنة. فسمح له وهو على العتبة، ثم صرفه.. فذهب جحا ثم عاد وقال له: نظرة أخرى على صاحب قديم آخر!. فإذن له رضوان ثم صرفه.. فذهب جحا ثم عاد يطلب مثل ما طلب.. وتكرر الأمر حتى ضاق به رضوان ذرعاً.. فصاح به: "لقد خيلتني يا هذا! كلما فتحت عيني وجدتك بالباب، أما أن تدخل وأما أن تخرج!". فسرعان ما قال جحا: "أدخل!" وبادر بدخول الجنة!.. هذا يا سيدي مثل مما يروجه الخبثاء والظرفاء ها هنا..

ـ تلك نكتة قديمة شائعة هنا في الدنيا..

ـ لم أسمعها وربك إلا هنا في الآخرة من زمن قريب!.. لعل مشيعها هنا رجل جاءنا أخيراً من أرضكم!..

ـ إذن أنت تسمع أيضاً بأحدث نوادرك في الأرض بعد موتك!

ـ حقاً.. ولعلي الميت الوحيد الذي لم يحل الموت دون استمراره في العمل!.. نوادر جحا تظهر في كل عام، ورفاتي في قبري قد أكله الدود من مئات الأعوام! ولكن الغريب أن يأتي إلى العالم الآخر قوم صعدوا حديثاً يقصون على بعض

هذه النوادر، فإذا ضحكت لطرافتها وظرفها تعجبوا وقالوا لي: "لكأنك تسمعها لأول مرة" ما من أحد يريد أن يصدق أني لست أكثر من زبون ضمن ملايين الزبائن المعجبين بنوادر جحا؟!

ـ ما رأيك في أهل السماء؟!

ـ رأيي أنهم يمتازون كلهم بخفة الروح!. ذلك أن أصحاب الأرواح الثقيلة لا يصعدون إلى أعالي السماء.. فهم كلما جاهدوا ليصعدوا إلينا.. جذبهم ثقل أرواحهم إلى أسفل، فهم يتركون الأرض، ولكنهم يظلون معلقين بذيل السماء!.. وهذه يا سيدي نعمة كبرى من نعم الآخرة.

ـ في الحق إنها لأكبر نعمة أن يتخلص الإنسان من عالم الثقلاء ويعيش بين أصحاب الأرواح الخفيفة!.. إن المرح إذن هو دستوركم!..

ـ قل إنه هواؤنا وطعامنا وشرابنا!..

ـ ما أسعدكم!..

ـ نعم.. ما أسعدنا!.. ولقد زالت هنا فوارق اللغة والجنس فنحن جميعاً متفاهمون لنا لغة واحدة وإدراك واحد وشعور واحد: المرح!..

ـ عندما طلبتك الساعة من كان معك من الإخوان؟

ـ كان معي شخص جاء أخيراً من الدنيا، ما كاد يضع قدمه في عالمنا الآخر حتى جعل يبحث عني، فلما اهتدى إلى عانقني وقال إنه كان يسمع بي في الدنيا، وأنه كان يعجب بالشرق من أجلي، وقد سألته عن اسمه فقال: "جورنج"

ـ "جورنج" الزعيم الألماني؟

ـ لست أدري.. كل ما أعلم أنه روى لي أنه مات منتحراً ساخراً من أعدائه، وقد قال إنهم حاكموه في قضية أشبه بقضية "جحا والأوزة".. فسألته عن هذه النادرة الجديدة، فقال: عجباً كيف لا تعرفها أنت؟ يحكي عن جحا أنه ذهب إلى الفرن بأوزة في صينية يريد إنضاجها لعشائه.. فمر بالفرن قاضي البلد وشم رائحة الشواء، فأمر الفران أن يحمل الصينية إلى منزله.. فلما حضر جحا وطلب الأوزة المشوية قال له الفران أن الأوزة طارت من الصينية.. فلم يقتنع جحا بالسبب وقاد الفران إلى قاضي البلد وبدئت المحاكمة، وتربع القاضي في صدر الجلسة.. والتفت إلى الفران يسأله عن الموضوع.. فقال الفران: "هذا الرجل المسمى جحا لا يصدق أن الأوزة طارت من الصينية!.." فتنحنح

القاضي وهز رأسه أسفاً ثم تجشأ برائحة الأوزة المهضومة في معدته وقال: يا للكفر! يا للزندقة! يا للإلحاد! ألا تعرف أيها الرجل أن اللّه قادر على كل شيء وأنه يحي العظام وهي رميم! حكمت المحكمة بعشرة قروش غرامة على المدعو جحا، لإنكاره مقدرة اللّه على الإتيان بالمعجزات!"...

هكذا روى لي "جورنج" القصة وختمها باسماً بقوله:

لقد عقدت في مدينة "نورمبرج" محكمة كهذه.. كان القاضي فيها "الحلفاء" والفران "إيطاليا" وجحا "جورنج" والأوزة "ألمانيا"..!

ـ لن يقف الأمر عند هذا الحد.. سوف ترى في نوادرك تجديداً في الأعوام القادمة.. فالزمن قد تغير.. ولم يعد السوقة والعوام صالحين للسخرية والنكات.. بل الساسة ومن يصفونهم بالرجال العظام! غدا تسمع من يقص عليك:

"يحكي عن جحا أنه كان ذات يوم في مجلس الأمن..".

ـ مهما يكن المكان الذي تذهبون بي إليه، والموضوع الذي تحشرونني فيه والأشخاص الذين تجعلونني بينهم فإنه يبدو لي أن مغزى نوادري القديمة قلما يتغير!..

ـ صدقت في هذا.. ومن أجل هذا كان خلودك في الأرض وكانت عظمتك!..

ـ عظمتي!.. هذه أول مرة أسمع فيها هذا الوصف يسبغ علي!...

ـ أرجو ألا يسوءك هذا

ـ بالطبع لا يسوءني هذا.. لأنه يضحكني.. ماذا كان يحدث لو أنكم ألبستموني رداء العظمة ولو يوماً واحداً.. قبل أن أموت؟ كنت نظرت إلى نفسي في المرآة، وهمست مختالاً: جحا العظيم!.. ثم خشيت أن أنزل بردائي إلى الحارة لئلا يجري خلفي الصبية والغلمان!. كلا.. رداء العظمة فوق منكبي جحا في الدنيا شيء يضحك الناس.. وربما سمج في نظرهم.. وبعد عن قلوبهم.. فالناس لا تحب إلا من تجرد لهم عن رداء التكلف والترفع، ولم يشعروا بعظمته حاجزاً عالياً يقف بينهم وبينه!

الحمد لله أني مت قبل أن يشوه نفسي ذلك الرداء!

مع قاسم أمين

ضغطت العصا على زر الجهاز، وطلبت قاسم أمين..

فسمع صوت يقول:

ـ أنا قاسم أمين.. من يخاطبني؟

ـ هنا القاهرة

ـ القاهرة!. البلد الذي تمنيت أن أرى نساءه قد خلعن البراقع السوداء وطرحن "اليشامك" البيضاء؟

ـ لماذا كنت تريد لهن ذلك؟

ـ ألا يزال ذلك محتاجاً إلى إيضاح؟ أما زلتم تتساءلون عن أسباب دعوتي، وتتناقشون في أغراض مذهبي؟ إلى متى أيها الرجال تفرضون على المرأة الحرب وتجعلونها حبيسة

الجهل قعيدة البيت؟. دعوها حرة كي تتلقى بعض العلم في المدرسة، واتركوها تسفر عن وجهها قليلاً.. حتى يذهب عنها بعض ذلك الحياء الذي تتعثر فيه.. أتوسل إليكم من عالمي الآخر أن تسمحوا للنساء أن يكشفن عن..

ـ عن ماذا؟

ـ عن وجوههن..

ـ عن سيقانهن؟

ـ وجوههن.. وجوههن.. ألا تسمعون صوتي جلياً من الآخرة؟!

ـ وأنت هل تسمع صوتنا جلياً من الدنيا؟!

ـ نعم.. أسمع.. تكلم..

ـ لقد كشفن عن سيقانهن!

ـ وجوههن؟

ـ أقول لك "سيقانهن".. ألا تصدق؟

ـ هذا مستحيل!.. أعد علي الكلام.. كشفن عن ماذا؟

ـ عملنا بنصيحتك وسمحنا لهن بالكشف عن وجوههن.. فلم يكفهن ذاك فكشفن عن نحورهن

وأذرعهـن.. حتـى وصـلن إلى سـيقانهن.. ولسـنا نـدري مـا ستكشف عنه الأيام؟!

ـ وهل يظهرن كذلك في الطرقات؟

ـ طبعـاً. أمـا في السـهرات فالكشـف عـن الظهـور والصدور مسموح به.. وأما في "البلاج" والبحار فالكشف عن الأكتاف والأفخاذ مباح..

ـ ماذا أسمع؟.. هل جننتم؟

ـ لا بل نحن في أتم قوانا العقلية.. ننفذ دعوتك على خير ما تتمنى.. يضع الزوج ذراعه في ذراع زوجته نصف العارية في ثياب السهرة، ويذهبان إلى السهرات الليلية في الحفلات "الخيرية" أو "التكريمية".. حيث تتلألأ الأجساد، وتذوب الأكباد على نغم "الجازبند" الذي يعوي عواء الذئب الجائع فتنهض الأذرع لتلوي على الخصور، والشفاه تنحني لتمس النحور.. وينبغي ألا تتساءل: في أي الأحضان وقع نصيب زوجتك أو أختك أو بنتك.. فقانون الرقص كقانون القضاء لا تمييز فيه ولا رد له.. فإذا كنت أبا أو زوجاً أو أخاً وأردت أن تناقش امرأة أو عذراء في ذلك.. أو خطر لك أن تقف في وجهها قائلاً: "لا خروج إلى هذا الحفل أو ذاك.."، فإنك

تسمع هذه العبارة يلقي بها في وجهك: "متأخرا!.. أين قاسم أمين يدافع لنا عن حريتنا؟!".

- أنا؟!

- نعم أنت.. اسمك على لسانهن دائماً.. لقد حققنا أملك نحن الرجال، وأدخلنا المرأة المدارس الابتدائية والثانوية، ولكنها أبت ألا أن تدخل الجامعة، فأدخلناها الجامعة وتخرجت فيها طبيبة ومحامية ومدرسة وأديبة وفيلسوفة الخ.. وإلى هنا لا بأس.. ولكن لا شيء يقف بالمرأة عند حد.. إنها تريد أن تكون سياسية وأن تدخل البرلمان، وأن تكون وزيرة ورئيسة وزارة.. لأن كلمة "البيت" في نظرها أصبحت مرادفة لكلمة "السجن" يكفي أن تقول لامرأة: "مكانك البيت" حتى ترميك بنظرة حارقة ناسفة وتصيح: "تريد حبسي؟" فإذا ذكرت لها الأمومة قالت بازدراء: "تريدني مرضعاً"!.. لا ترضى بأقل من مناصب الرياسة والقيادة والسيادة.. وسيأتي اليوم الذي يظفرن فيه بما يردن، ويتركن البيت لنا معشر الرجال لنرضع نحن الأطفال من "البزازة" بألبان النسلة والأوفالتين!. والويل لنا إذا اعترضنا.. فالعبارة المألوفة تصفع وجوهنا: "متأخرون! أين قاسم أمين يرى وقوفكم في طريق حريتنا!"..

ـ ماذا تقولون؟.. أنا؟..

ـ أنت الذي أسِفَ على المرأة من تعثرها في الحياة.. إنها قد حطمت كل السدود التي تفصلها عن الرجل.. لا يوجد اليوم حمام للسيدات على شواطئ البحار.. لأنه لا يصح أن يكون هناك فرق بين النساء والرجال.. فمن أراد إقامة فاصل بين الجنسين تعرض لنقمتهن واعتبرنه خادشاً لكرامتهن.. إنهن والرجال سواء.. إذا سبح رجل في بحر وجب أن يسجن معه، وإذا دخل ملهى لابد من أن يدخلن معه.. وإذا دخن كان لهن أن يدخن، وإذا احتسى الخمر كانت الخمر لهن حلالاً.. وإذا لعب الورق كان القمار بغيرهن سخافة، والمائدة الخضراء بغيرهن عتمة وسواد.. ما من رذيلة يأتيها الرجل إلا كانت اليوم للمرأة حقاً من حقوقها المكتسبة!

فإذا قلت للنساء: مهلاً.. مهلاً.. هذا لا يصح لامرأة أن تأتيه!.. صحن في وجهك: "كيف يصح ذلك للرجل ولا يصح للمرأة؟.. فيم التفرقة أيها الرجال؟

.. ولكنه استبدادكم دائماً واستعبادكم لنا.. أين قاسم أمين ينتزع لنا منكم حقنا ويذود عن حريتنا؟!.."

ـ أنا؟ أنا؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله!

ـ أنت ولا شك كنت تبيح للفتاة أن ترى خطيبها مرة في حضرة أهلها قبل أن يعقد القران.. فلتقر عينك اليوم.. فإن هذه الإباحة قد تعدت الرؤية النظرية إلى ما تسميه الفتاة الآن حقها في امتحان الخطيب، فهي لا تكتفي بمرآة.. بل لا بد لها من وقت طويل تنفرد به خلاله وتخرج معه إلى النزهة والسينما والحفلات والسهرات.. ليتم لها فحصه الفحص الدقيق في مختلفة مناحيه وجوانبه ونزواته ونوازعه.. فإذا بدا لها يوماً أنه كان ثقيل الظل في اختياره رواية سينمائية بطلتها "ريتا هيوارث" التي تمقتها.. فإنها تخرج خاتم الخطبة من أصبعها وتلقي به في وجهه.. وتفسخ ما بينهما لأن أذواقهما غير متفقة.. وتمد إصبعها لخاطب آخر يضع فيها خاتماً جديداً وتمثل معه قصة الخطبة ردحاً من الزمن.. وهلم جرا.. فإذا كنت أباً وأخاً وأردت أن تقول لهذه الفتاة: هذا ليس مشروع تأسيس أسرة، ولكنه لعب ومغازلة مع الشبان في صورة علنية مشروعة، أجابتك الفتاة في الحال: "في أي عصر نعيش؟.. أنحن في القرون الوسطى؟.. أنحن في عهد الجواري والحريم؟ الدنيا حرية.. رحم الله قاسم أمين!.."

ـ كفى.. كفى.. في أي عصر تعيشون أنتم؟.

لا شك أنكم جننتم!.. إن ما أسمع عجيب!..

ـ أليس هذا ما كنت تتمناه للمرأة الجديدة؟

ـ أنا؟ أيمكن أن يتصور عقلي ذلك الذي تحكي عنه؟ .. أحدث كل هذا عندكم في هذه الفترة الوجيزة؟.. كيف أمكن أن تصبح المرأة لديكم على هذه الصورة في هذا الزمن القليل.. إن لي رغبة في أن أبصق في وجوه..

ـ النساء؟..

ـ بل الرجال.. أنتم معشر الرجال القوامين على هؤلاء النساء.. كيف أرخيتم لهن الحبل حتى انطلقن إلى هذا الحد المخيف، الذي لم يخطر لي على بال؟.

ـ ماذا نصنع؟. كلما هممنا بجذب الحبل وإظهار الشدة.. صرخن في وجوهنا: "رحم الله قاسم أمين! أين قاسم أمين يمنحنا حريتنا؟. لو كان قاسم أمين حياً لآزرنا وعضدنا!".

ـ أنا أعضدهن على ذلك؟! الحمد لله إني لم أكن حياً..

ـ ماذا كان يحدث لو أنك حي؟!

ـ كان يحدث أن يضربنني بنعالهن!..

ـ وإذا رأيت نعالهن اليوم أيضاً لهالك الأمر وبلغ منك العجب! فبعضها له كعب دقيق عال كحافر المعزة.. وبعضها له نعل سميك كأنه دبابة.. والبعض يكشف عن مؤخر القدم، والبعض يكشف عن مقدمها.. لأن جوارب "النايلون" يجب أن تظهر للعيان ويجب أن تعطي الفرصة لتتمزق ويدفع في أمثالها باهظ الأثمان.

ـ أو لم يزل اسمي مقروناً بهذه المساخر؟!

ـ بالطبع.. إذا قالوا: "المرأة الجديدة" قالوا: "قاسم أمين"!

ـ وما العمل؟ أما من طريقة لإظهار تنصلي...

ـ تنصلك من ماذا؟ من هذه الحركة النسوية؟ مستحيل!

ـ أرجو منك!.. أنت رجل طيب فيما يلوح لي وقد تفضلت فخاطبتني وبينت لي ونبهتني..

ـ لا يا سيدي.. لا تأمل في ذلك.. تنصلك الآن من أصعب الأمور..

ـ افعل ذلك من أجلي.. من أجل الحقيقة والتاريخ.. من أجل رجل مسكين.. استغلوا اسمه في كل موضع..

ـ وماذا تريدني أن أفعل؟

ـ أعلن إلى الناس عن لساني أنه لا علاقة لي بهذه الحركة..

ـ وهل تظن أحداً يصدقني؟.. لو تكلمت باسمك وقلت: إني خاطبتك وتلقيت عنك هذا الإعلان، لأدخلوني تواً مستشفى المجاذيب.

ـ وما الذي تراه لي إذن؟

ـ سلم أمرك إلى الله!.. فلست أنت أول ولا آخر رجل يلصق اسمه على أشياء هو منها براء.. اعتبر نفسك طابع بريد.. أيمكن أن يسأل ذلك الطابع عما يلتصق به من رسائل، قد يكون فيها ما ينذر بالكوارث والدواهي؟!

الآخرة لأهلها

أرادت العصا أن تمضي في الضغط على الزر، وتطلب من تختار.. ولكنها ترددت قليلاً.. والتفتت إلى وقالت:

ـ أظن من سلامة الذوق وحسن الأدب أن أترك لك حرية الاختيار تبعاً لمشيئتك أنت، ولو لحظة.. ما قولك في أن تضغط أنت على الزر وتطلب من تشاء؟ ربما كان لك في الاختيار مأرب تحب أن تحققه أو مقصد ترى أن تسعى إليه..

قلت:

ـ حقاً أريد أن أعرف أموراً تهمني معرفتها من بعض سكان العالم الآخر.. أتأذنين لي في الدنو من الجهاز لأطلب من أريد؟..

قالت العصا:

ـ تفضل!..

فاقتربت في الحال من الجهاز، وضغطت على الزر، وطلبت "طاغور".. وانتظرت لحظة مضطرب الأنفاس مرتعش اليد.. وإذا صوت يبدو لأذني جلياً عميقاً:

ـ ماذا تريد مني؟

ـ طاغور؟ الشاعر الهندي والقطب الروحاني؟ لقد فارقت دنيانا منذ أعوام قليلة.. أخبرني ماذا تصنع عندك الآن في مقامك الأزلي؟

ـ أو تريد هكذا بلا ثمن أن أخبرك بأشياء كلفني العلم بها أن أموت..؟

ـ كنت في حياتك تجهد لتعلم غيرك، فما يضيرك في مماتك أن تعلم الناس أيضاً؟..

ـ لكل دار علومها ودروسها، هل كنت وأنا على الأرض أعلم الأموات؟.. كيف تريدون مني الآن بعد الموت أن أعلم الأحياء؟ علوم الدار الأرضية لا يفهمها غير أهلها.. وعلوم الدار الآخرة لا يدركها غير أهلها.. مت أولاً فتفهم عني بعد ذلك الجواب عن سؤالك!

وانصرفت روح طاغور عن الجهاز، شأن من يضع السماعة وقد انتهى الحديث.. وتركتني كما كنت قبل.. لم أفز بطائل.. وجعلت أقلب الأمر في نفسي، ثم قلت للعصا: مالي ولشؤون الأرواح.. وما يجري في العالم الآخر؟ فلا قصر همي على عالمنا الحاضر.. وأفكر في مستقبل حياتي المادية.. إني رجل لا أنجح في أي عمل مالي.. وكلما وضعت مدخري القليل في تجارة كسدت بإذن الله أو بفضل خيبتي الباهرة.. لماذا لا أستعين بخبرة محنك في أمور المال مثل المليونير الأمريكي "فورد" ملك السيارات؟ فلنطلب روحه ونسألها العون والمشورة.. وضغطت على الزر مرة أخرى وطلبت روح "هنري فورد" فحضر قائلاً:

ـ من يناديني؟

ـ أنا.. شخص لم تعرفه قط.. يلتمس توجيهك ليصبح ثرياً...

ـ افتح مصنعاً للسيارات..

ـ هذا مستحيل.. إني لا أفهم في هذه المسألة شيئاً..

ـ وأنا لا أفهم خارج هذه المسألة شيئاً..

ـ إني لا أعرف كيف أقود سيارة، بل دراجة.. وكل ما عندي من رأس مال بضع مئات من الجنيهات، وأريد أن أصبح بها مليونيراً بفضل نصحك وإرشادك، وإلا فما فائدة أرواح العظماء أمثالك؟..

ـ لو كانت روحي.. أنا وأمثالي تستطيع أن تجعل من كل مشترك في هذا الجهاز التليفوني صاحب ملايين لما أصبحت للثروة قيمة في أرضكم..

وانقطع الصوت.. ومضت روح "فورد" لشأنها.. وتركتني حائراً يائساً.. وقد ضاع أملي في الثراء السريع.. وطفقت أفكر ملياً في استغلال هذا الجهاز الذي لم أجن منه بعد أيّةَ ثمرة.. وخطر لي خاطر فقلت للعصا: "مالي وللعلم والمال.. هنالك الفن.. إني لم أعالج قرض الشعر.. فلو طلبت روح المتنبي وسألته أن ينظم لي قصائد من روائع عبقريته وأذعتها في الناس.. ألا يكون هذا عملاً جليلاً؟!". فقالت العصا: "جرب!" فبادرت أضغط على الزر وأطلب روح الشاعر العربي القديم.. فحضر يقول بصوت فخم ضخم:

ـ أنا المتنبي!..

ـ أهـلاً وسـهلاً.. أنـا أحـد المعجـبين بـك، ألـتمس منـك قصيدة تصور فيها الحرب الأخيرة كما كنت تصور الحرب في زمانك!

فانطلق صوت المتنبي ينشد:

وتضـحى الحصـون المشـمخرات في الـذرى
وخيلـــــك في أعنـــــاقهن قلائـــــد
عصـــفن بهـــم يـــوم اللفـــان وســـقنهم
بهنـــريط حتـــى ابـــيض بالســـبي آمـــد
وألحقـــن بالصفصـــاف ســـابور فـــانهوى
وذاق الـــــردى أهلاهمـــــا والجلامـــــد

فقاطعته برفق قائلاً له:

ـ هـذا وصـفك للحـرب منـذ ألـف عـام ونيـف.. ولكـن الحرب الأخيرة شيء آخر.. إن الطائرات والدبابات وقاذفات اللـهب وقـذائف الصـواريخ، وقنابـل الـذرة، تفعـل أفاعيـل وتحدث أعاجيب لو اطلعت عليها...

ـ قنابل الذرة؟ ما هذا؟.

ـ شيء يطول شرحه.. إنها بالاختصار آلة تلقى من طائرة

ـ طائرة؟ وما الطائرة؟.

ـ مركبة هوائية تحلق في الجو وبداخلها إنسان

ـ عجباً! عجباً!.

ـ أنت إذن لا تعرف شيئاً غير الذي كان في عصرك! ولن تستطيع أن تصف إلا ما شاهدت في حياتك على الأرض.

ـ وكيف أعرف ما لم أره؟

ـ شكراً لك إذن!..

ووضعت سماعة ذلك التليفون وأنا ضيق الصدر مكروب النفس أنظر شزراً إلى ذلك الجهاز..

وإذا العصا تقول:

ـ مالك وهذه المطالب المعقدة؟. لك صديق مريض بالتهاب الرئة.. حبذا لو استشرت في أمره طبيباً مشهوراً مات منذ سنوات.. فلماذا لا تطلب ذلك الطبيب؟

فضغطت على الزر وطلبت روح ذلك الطبيب فحضر، فقلنا له:

ـ الموضوع يتعلق بحالة التهاب رئوي

ـ ضعوا على صدر المريض لبخة بذر كتان..

ـ ولنه يعالج الآن في المستشفى بحقن "البنسلين"؟

ـ "البنسلين"؟.. ما هذا؟

ـ علاج جديد ظهر في زمن الحرب الأخيرة وعولج به "تشرشل" أكثر من مرة في حالات خطيرة لهذا المرض!..

ـ شيء غريب؟ اشرحه لي..

ـ أنا لست طبيباً... وعلى كل حال فنحن لم نطلب حضرتك لنعلمك الطب.. أو نشرح لك أحدث مخترعاته...

وهنا أبعدت السماعة.. فقد قالت العصا:

ـ يظهر أن هذه الأرواح أجهل منا بكثير!..

فقلت:

ـ هذا طبيعي.. وكيف تريدين منها أن تلم بتطورات حياتنا وقد انصرفت عنا إلى حياة أخرى؟. إن أقصى علمها هو ما وقع في حدود تجاربها الخاصة على هذه الأرض.. أما بعد ذلك فلها حياتها الجديدة التي نجهلها نحن كل الجهل.. ولا تستطيع هي أن تخبرنا بها.. لأنها لا تملك التعبير عنها بأدوات الآدميين ولا بإحساساتهم.. ولا تقدر على نقلها إلى مداركنا بوسائل البشر ومشاعرهم.. فهم عالم جديد غير

عالمنا، لا يعرف فيه السرور ولا الحزن، ولا الفرح ولا الترح، ولا السعادة ولا الشقاء، ولا اللذة ولا الألم، على النحو الذي نعرفه في هذه الأرض.. لئن كانت الحياة الإنسانية تتغير مقاييسها وموازينها وتنقلب رأساً على عقب على سطح القمر القريب منا، أفلا تريدينها متغيرة التغيير كله في العالم الآخر؟!

وأرسلت العصا نظرة إلى الجهاز التليفوني وقالت:

ـ وما فائدة هذا الجهاز إذن؟!

فقلت لها بعد تفكر:

ـ لست أدري.. ربما كان نافعاً للتسلية كجهاز الراديو.. فقد يسرنا أن نشغل فراغنا بطلب روح شخص من أقربائنا... أو من أبطال التاريخ لنثرثر معه قليلاً في أشياء لا طائل تحتها، وما دمنا لا نسأله شططاً ولا نطلب إليه مستحيلاً ولا نلتمس عنده علماً أكثر من علمه، فإننا لن نصاب بخيبة أمل!.. ودعيني أثبت لك تلك الساعة.. سأطلب روح "نابليون" وأرجو منه أن يروي لي حياته الماضية.. وهذا بالطبع أمر لا يمكن أن يجهله..

وضغطت على الزر في الحال وطلبت روح الإمبراطور فحضر وسألته بأدب يليق بجلالته عن حياته الغابرة، فقال:

ـ أو تحسبني أتذكر تفصيلات كثيرة عن هذه الحياة الآن؟

ـ أحقاً لا تستطيع جلالتك أن تتذكر ذلك؟..

ـ وهل تستطيع أنت أن تتذكر أشياء كثيرة واضحة في حياة طفولتك الأولى؟..

ـ صحيح.. لكأن ستاراً من الضباب يقف بيني وبين أغلب تفاصيلها..

ـ حياتي في الأرض كذلك.. هي حياة طفولة بعيدة.. بعيدة.

ـ لقد كتب المؤرخون عنك مجلدات ضخمة تصف دقائق حياتك..

ـ أنصح لك إذن أن تكتفي بها.. منها على كل حال تعرف عني أكثر مما أعرف أنا الآن!..

وهنا أومأت إلى العصا بإشارة من يدها تنم عن الضيق، أن أطرح السماعة فوضعتها.. فصاحت بي متهكمة:

ـ أرأيت؟.. حتى ولا الثرثرة معهم كثيرة النفع! وهنا قمت إلى الجهاز فحملته وألقيت به في خزانة للأمتعة القديمة.. وعدت إلى مكاني.. فقالت العصا:

ـ حسناً فعلت!.. فلندع الموتى في دنياهم، والأرواح في عالمهم.. فالويل لهم إذا كنا سننتزعهم من صفائهم العلوي لنقحمهم في مشاغلنا ومسائلنا ونشركهم في جدنا وهزلنا، ونحملهم همنا وتبعاتنا.. والويل لنا إذا كنا سنعتمد عليهم ونستنيم إليهم! لعنة الله على هذا الاختراع الذي يريد أن يحدث ثغرة في ذلك السد الذي لا يكسر، والسور الذي لا يقهر: الموت!.. فيخلط بين بحرين مختلفين في جوهر الماء ومعدن الأحياء.. ويشيع الفوضى بين عالمين، خلقا منفصلين! ويجعل أحدهما مسلاة، والآخر ملهاة!.. وماذا يبقى لنا بعد ذلك من مصير كنا نحسبه أجل من هذا وأقدس.. ومن حياة أخرى كنا نظنها أرفع من أن تهبط إلى الاهتمام بسخفنا الفاني وعبثنا الزائل؟.. ألا أيها العلماء.. اخترعوا في شؤون الذرة والقوى الحيوية ما شئتم من اختراع.. ولكن، بربكم.. اتركوا لنا على الأقل حلمنا الأزلي الجميل وصورتنا المثالية الرائعة عن "الآخرة"!..

المحتوى

توفيق الحكيم/ مقدمة بقلم مالك صقور 4
تمهيد: ابنة من الخشب 20

الجزء الأول: في الدنيا..... 22
الخوف من الجوع..... 24
الكرات الثلاث 27
مخلوق محير 29
سر الإعجاز! 31
الهبوط إلى الشارع..... 33
أعداؤنا الثلاثة..... 36
لماذا فقدنا روح البناء؟ 39
جهاز السرعة..... 42
الشباب والحياة..... 45

الاختراعات تخلق الضرورات..... 48
هل تقبل أن تولد؟ 51
الفن واسع والعقول ضيقة 54
أجيال الغد 57
بعث الحضارة 60
"الله" تعويذة الأمريكان..... 63
الرجل الثالث..... 66
صناعة الآراء..... 68
قيمة الاشخاص والاشياء 71
المقامر والمرابي..... 74
الحاصل صفر 77
الشرق الشحاذ..... 79
العصر "الشكوكي"..... 82
الإنسان .. ذلك الجبان 84
مطية الإنسان 86
نوع من النبوغ..... 89
خزان آخر..... 91
الريحاني الحي..... 95
أصدقاء الرقاء 96
عصير الذهن 98
الفن في البرلمان..... 100

هل المداد هباء؟..... 102
قوة الروح 104
لو حكم الفلاسفة..... 106
كرة القدم 108
لا موت في أمية حية..... 110
الثمار الضائعة..... 112
سوق عكاظ هذا العصر 114
سر التاريخ 116
امتياز الذهن 118
المعلم والحاوي! 120
مصنع الشر..... 122
ثمن الدم 124
فرحة الجديد 127
الدواء العجيب.! 129
دورة الزمان..... 132
مقبرة النجاح..... 135
منشآت العمال..... 137
أحلام العظماء 140
مهر الفن..... 143
استقلال الشخصية..... 145
دواء الغلاء 147

مرآة الفكر 150
المهن الراقية 152
العمل الكامل 154
استعارة الأردية 157
غاية الطبيعة 159
العالم الأفضل 162
خلود الفكر 164
طابع الحضارة 166
الماضي طريق المستقبل 168
روح الإنصاف 170
استقلال التفكير 172
الروح السلبية 174
وحدة الفكر 176
عصر الغابة 178
حلقات العمر 180
عمر الشجرة 182
الحلم الحي 184

الجزء الثاني: في الآخرة 186
الاتصال بالعالم الآخر 188
مع حواء 190

مع هتلر 195
مع كليوباترا 202
مع روميو وجولييت..... 210
مع جان دارك 218
مع جحا..... 227
مع قاسم أمين 236
الآخرة لأهلها 245

إصدارات سلسلة
كتاب الجيب السابقة

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
1	المقاومة مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
2	المقاومة مختارات شعرية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
3	القصة القصيرة في سورية الراحلون	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2006
4	علامة الشام أحمد راتب النفاخ	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
5	رفقة السلاح ... والقمر	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
6	صوت في الظلام قصص ايطالية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
7	الخرز الملون خمسة أيام في حياة نسرين حوري - رواية وثائقية	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2007
8	الأديب - النص - الناقد / د. طه حسين ميخائيل نعيمة - فؤاد الشايب -د. محمود أمين العالم - بدر شاكر السياب	د. خالد البرادعي	د. حسن حميد	2007
9	ظاهرة (الأدب الصهيوني) / إطلالة على :(المصطلح النشأة الموضوعات)	محمد توفيق الصواف	محمد توفيق الصواف	2007
10	أبو خليل القباني رائد المسرح العربي	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
11	نازك الملائكة	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
12	الشاعر محمد الحريري مختارات	د. حسين جمعة	عبد القادر الحصني	2007
13	عبد الله عبد مختارات قصصية	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2007
14	الإصلاحيون أحمد أمين	د. حسين جمعة	د. خالد محي الدين البرادعي	2007

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
15	مختارات من أدب الأطفال	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
16	بالليل ونصوص أخرى	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
17	وداعاً يا دمشق	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
18	ماري عجمي في مختارات من الشـعر والنثر إصدار الرابطة الثقافية النسائية في دمشق 1944م	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
19	إنصاف المرأة	د. حسين جمعة	عيسى فتوح	2008
20	أحب الشام -ناديا خوست	د. حسين جمعة	عبـــد القـــادر الحصني	2008
21	التراب الحزين بديع حقي	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
22	القصـــيدة الدمشـــقية وقصـــائد أخرى- نزار قباني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
23	مختارات من نوح العندليب شفيق جبري	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
24	مختارات من أعمال الأديبة غـادة السمان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
25	مختارات قصصية للأديبـة قمـر كيلاني	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2008
26	مقالات دمشق - مكـان وسـكان وألوان	د. حسين جمعة	فادية غيبور	2009
27	سميح القاسم - الصورة الأخيرة في الألبوم	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
28	مقهى الباشورة -خليل السواحري	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
29	جبـرا ابـراهيم جبـرا- عـرق وقصص أخرى	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
30	محمـود درويـش - مختـارات شعرية من دواوينه والانترنت	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
31	عائد إلى حيفا وأعمـال أخـرى-	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
	غسان كنفاني			
32	عذبة رواية- صبحي فحماوي	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2009
33	حكايـــة الولـــد الفلســطيني 1971- أحمد دحبور	د. حسن حميد	د. حسن حميد	2009
34	أســئلة الثقافــة فــي القــدس والمقاومة- مقالات- المتوكل طه	د. حسين جمعة	د. حسن حميد	2009
35	مختارات من شعر علي الجندي	د. حسين جمعة	محمد حمدان	2010
36	الجولان فـي القصــة الســورية (حضور المكان)- علي المزعل	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
37	(الامريكي) أحمد رفيق عوض	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
38	ملكوت البسطاء- رواية -خيري الذهبي	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
39	مختارات قصصية رقصـة ليلـة الوداع - رشاد أبو شاور	د. حسن حميد	فاديا غيبور	2010
40	شفيق الكمـالي ـــ مختـارات شعرية زبير سلطان قدوري	زبيــر ســلطان قدوري	فاديا غيبور	2010
41	الأعلام الشعري في التراث العربي - أحمد سويلم	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
42	الظل الثالـث وقصـص أخـرى مختارات قصصـية - د. خليفـة صالح أحواس	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
43	بريجيت مأساة تمثيلية ذات خمسة فصول-يوسف نعمة الله جد	د. حسين جمعة	فاديا غيبور	2010
44	انطــوان تشــيخوف دراســات ونصوص د. شاكر خصباك	د. إبـــــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	د. إبـــــراهيم الجرادي -عبـد العزيز المقالح	2010
45	عبد الله البردوني قصائد مختـارة ودراسات	د. حسين جمعة	د. إبـــــراهيم الجرادي	2011
46	القصيدة تبحث عن نفسها (شعراء التسـعينيات والأنمـاط الشـعرية	د. إبـــــراهيم الجرادي	د. إبـــــراهيم الجرادي	2011

سنة الكتاب	اختيار الكتاب	تقديم الكتاب	عنوان الكتاب	م
			السائدة)	
2011	د. طالب عمران	د. طالب عمران	مختارات من أدب الخيال العلمـي العربي - رقم 004 يأمركم	47
2011	د. ثائرزين الدين	فؤاد الكحل	الله والغريب مختـارات شـعرية سلامة عبيد	48
2011	د. ابـــــراهيم الجرادي	مالك صقور	ماياكوفسكي غيمة في سروال	49
2011	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	سليمان العيسى- اليـأس : أمـل يستنسخ أوصافه	50
2011	شاهر امرير	د. حسين جمعة	محمد الفراتي مـأخوذاً بـالوردة والسيف مختارات شعرية	51
2011	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. ابـــــراهيم الجرادي	نزيه أبو عفش حارس الآلام	52
2011	د. ابـــــراهيم الجرادي	د. علـي جعفـر العلاق	الشاعر العربي الحديث مسرحياً	53
2011	مالك صقور	مالك صقور	حكم النبي محمد ليف تولستوي	54
2012	مالك صقور	مالك صقور	جـان جـاك روسـو المصـلح الاجتمـاعي - محمـد عطيـة الأبرشي	55
2012	مالك صقور	مالك صقور	بدر شاكر السياب- منزل الأقنان	56
2012	مالك صقور	د. جميل صليبا- د. كامل عياد	حـي بـن يقظـان لابـن طفيـل الأندلسي	57
2012	مالك صقور	د. حسين جمعة	بدوي الجبـل (محمـد سـليمان الأحمـد) عـام 1968 مدحـة عكاش-	58
2012	مالك صقور	مالك صقور	ابن الرومي حياته من شعره ج1 عباس محمود العقاد	59
2012	مالك صقور	مالك صقور	ابن الرومي حياته من شعره ج2 عباس محمود العقاد	60
2012	مالك صقور	مالك صقور	كان ما كان - ميخائيل نعيمة	61

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
62	إمرأة من برج الحمل - اعتـدال رافع	ماجدة حمود	ماجدة حمود	2012
63	من النكبة إلى المقاومة والتجديد	مالك صقور	مالك صقور	2012
64	الأعاصـير - الشـاعر القـروي رشيد سليم الخوري	د. حسين جمعة	د. ثائرزين الدين	2012
65	عبـد اللطيـف عقـل دراسـات ومختارات	ياسين فاعور	ياسين فاعور	2012
66	حكيم الدهر أبو العلاء المعري	مالك صقور	مالك صقور	2012
67	الاصدار الأول للموقف الأدبي	مالك صقور	مالك صقور	2012
68	عبقريات العقاد (دراسة وتحليل)	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
69	الاشتراكية والأدب	مالك صقور	د. حسين جمعة	2013
70	رباعيات عمر الخيام	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
71	طبـائع الاسـتبداد ومصـارع الاستعباد	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
72	ليس لدى الكولونيل من يكاتبه		مالك صقور	2013
73	ما الشعر العظيم؟	د. نزار بريك هنيدي	د. حسين جمعة	2013
74	الشعر بين الفنون الجميلة	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
75	الفقـه والتصـوف والمسـائل الشرعية في الخلافة	أ. محمـد رأفـت الحلاق	مالك صقور	2013
76	صالح العلي ثائراً وشاعراً	أ. د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
77	أبو القاسم الشابي شاعر الشباب والحرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2013
78	أنا من سلالة الصخور	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
79	الأديـب والمفكـر أبـو حيـان التوحيدي	د. نزار بني المرجة	مالك صقور	2013
80	الأدب للشعب	أ.د. حسين جمعة	مالك صقور	2014

م	عنوان الكتاب	تقديم الكتاب	اختيار الكتاب	سنة الكتاب
81	مديح الظل العالي	أ. د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
82	معارك فكرية	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014
83	وافعية بلا ضفاف	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
84	كيف تعلمت الكتابة	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
85	السيف والترس	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
86	بعث الأمة العربية ورسالتها إلـى العالم	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
87	الغربال	مالك صفور	أ.د. حسين جمعة	2014
88	الله	أ.د. حسين جمعة	مالك صفور	2014